

السنة الثالثة عشرة

(ابريل - يونيه ١٩٤٦ - جهادى الاولى - رجب ١٣٦٥ العدد الثانى)

صحيفة دار العلوم

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المدير
محمد نجيب عثمان

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بناى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

٢٠ قرشاً	في القطر المصرى
٣٠ قرشاً	خارج القطر
٥ قروش	ضمن العدد

مراجعة العام ١٦٢

إِنْ بَاحِثًا مَدَقَّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِنْ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَإِنْ تَحْيَا الْوَجَدَ هَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَائِرِ الْعُلُومِ

الاستاذ الامام الشيخ محمد عنبه

في رسالة الغفران لأبي العلاء

بقلم

السباعي بيومي الأستاذ بدار العلوم

-- ٢ --

ثانيا - مواطنهم الخيال ومقصدهم فيها

نسج المعري رسالة غفراته على الخيال لحة وسدى ، وإن وقعت جمرة تخيلاتته من النوع البياني الغالب على أدبنا العربي ، ذلك النوع الذي لا يعدو تفسير ما هو موجود تفسيراً توضحه الصورة المبنية عادة على الاستعارة والتشبيه ، وهو وإن كان الغالب على أدبنا العربي فإن القادرين عليه ليسوا بالكثرة الكثيرة من الأدباء ، لأنه يتطلب دقة ملاحظة واشتغال ذكاً . يدرك بهما الأديب الميزات الروحية للأشياء ثم يصوغها صوغاً ينبئ عنها الجمود ويحمل فيها الحياة .

فمن ذلك تخيله ما تخيل في أنهار الجنة الجارية بالماء أو اللبن أو العسل أو الخمر وما تستلزمه هذه الأخيرة حين الشرب من أباريق وكؤوس وسقاة وندمان ، فقد استمد ذلك من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الواردة بمعناها أو تفصيلاً لهذا المعنى ، والتي لسهولة تناولها ليست في حاجة إلى أن نسوقها للاستشهاد . ومنه تصوّره رغبة أبي ذؤيب الهذلي أن يحلب ناقة ويشوب لبنها بالشهد كما كان يتمنى ذلك في دنياه ، فانه أخذه من قوله في حبيته :

وان حديثاً منك لو تعلّيته جنى النحل في ألبان عوذ مطافل
مطافيل أبكار حديث نتاجها تشاب بماء مثل ماء المفاصل

ومنه التجاؤه يوم الموقف إلى الشعر يتقرب به إلى رضوان وزفر من خزان الجنة، وإلى حمزة بن عبد المطلب حين لم يعبده ذاك، وكذا طلبه إلى جارية الزهراء أن تبيحه الصراط محمداً على ظهرها ويذاه بمسكيتان من فوق كتفها بيديها على صدرها، فانه أخذ الشفاعة بالشعر بما كان يفعله الشعراء من التقرب به إلى الملوك والسادة والأعيان، كما أخذ تلك الصفة في الخيل من الجملة المعروفة بالزقفونة في مثل قول الجحجول من أهل كنف طاب إحدى قرى الشام.

صلحت حالني إلى الخلف حتى صرت أمشي إلى الوري زقفونه
ومن قول الآخر فيها وهو الذي تمثل به حين طاب إلى الجارية ما طاب

ست إن أعيالك أمرى فاحمليني زقفونه

ومنه تخيله المأدبة التي أرادها أن تقام في الجنة لكل من كان في دنياه ذا أدب وعلم، وكذا حفلة الشرب والغناء التي أراد أن تمر بكل من كان من عشاقهما في الحياة الأولى، فان كليهما لم تكن إلا عملية مكرورة معادة لمثلها في الحياة الدنيا، ولكن لدى أرباب النعمة والجاه والسلطان والسخاء الذين تعودوا البذل في مآذب الأكل ومجالس الشراب، موغلين في السرف ومغرقين في الافتتان.

ومنه تخيله ما تخيل من الأعمال التي نسبها إلى الجنى حين قرض على لسانه قصصه الرائية والسيفية في ألوان من التمرد والشيطنة بما اعتاد الأنس أن ينسبوه إلى الجنان، وفي أحوال الرجم على حسب ما أدلت به عنه الشرائع ونطق القرآن، ولكل من القصصين دلالة على ما كان بنفس المعري من قدرة ذات سعة في هذا الخيال، وإليك من كل مثلاً على كثرة ما فيهما من أمثال.

قال من الأولى في وسوسة الجنى لموسى عليه السلام:

وقد عرضت لموسى في تفرد به بالشاء ينتج عمروسا وغرفورا

لم أخله من حديث ما ووسوسة إذ ذك ربك في تكليمه الطورا

وقال من الأخرى في حمله زوجاً على سوء الظان بعمره حتى طلقها ثم ندمه

بعد ذلك.

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس

نقول لا تقنع بتطليقة واقبل نصيحالم يكن بالديس
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجد يجد تعيس
نذكره منها وقد زوجت نغرا كدر في مدام غريس

إلى غير ذلك من التخيلات البيانية الكثيرة التي كان آخرها فيها ذلك الذي
ذكرناه آنفا آخر البحث الأول من رغبته أن يعتريه من الفتور عقب الشرب ما كان
يعترى أخا الندام، وخلصه على نفسه من ذلك صورة لم يكن ليصل إلى مثلها أمثال
النوايس في خوالى الأيام .

على أن في الرسالة من الخيالات الابتكارية الذي يعتمد فيه الأديب إلى تأليف
بمخوعات جديدة من العناصر المخزونة في ذاكرته كما يؤلف البستاني الطاقة الخيلة
الرائقة من أرائير بستانه ، مواطن ذات شأن ، وقبل أن نعدد من هذه المواطن
أشياء ، ينبغي أن نوضح هنا بأن الرسالة في موضوعها جملة من هذه الخيالات الكلاسيكية
على الصورة التي عرضناها ونحن نذكر أشخاصا ومتناولها ، فإن تصوره رجلا
يصعد به إلى السماء ليرى نعيم الجنة وجحيم النار ، وتخيله الحديث عجباً عن هذا
الرجل مع شخصيات يفرض تلاقيه بها في كليهما ، غير ناس أن يصور يوم الموقف
وموقفه منه موازنا بمواقف المحشورين ، وكذا تصوره جنة للعفاريت المؤمنين ،
وتنزهه ببعض منازل الجنة لمن تسمح بأدخالهم فيها ، ليس إلا صورة مبتكرة
ألفها خياله من عناصر اختزنتها ذاكرته ، سابقا بها دانتى الإيطالي بثلاثة قرون
وملن الانجليزى بسنة ، هذين الروائيين اللذين لم يتصورا أكثر مما تصور ، ولم
يفضله الأول في جحيمه ولا الثاني في فردوسه ، على ما خلف لكليهما من أثر يقتنى
ومثال يحتذى ، وهذى بعض أمثلة من هذا الخيال الابتكاري التأليفى الذى بثه
أبو العلاء في ثنايا رسالته .

من ذلك تخيله الغناء يقع من إوز في الجنة قد انتفض قيانا كواعب يغنين
بجميع الألحان حين يقول ، ويمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك
الروضة ويقف وقوف منتظر الأمر ومن شأن طير الجنة أن يتكلم فيقول له
ابن القارح ماشاً : لكن ؟ فيقلن ألهما أن نسقط في هذه الروضة فتغنى لمن فيها من

شرب فيقول على بركة الله القدير فيقتضض فيصرن جواري كواعب يرفلن في وشى الجنة وبأيديهن المواهر وأنواع ما تأنس به الملهى فيهجب وحق له العجب وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلّت عظمتة ، إلى آخر ما انساق فيه من حديث عثمان استغرق صفحات .

ومنه ما تخيله في حور الجنة اللاتي يخرجن من ثمارها حيث يقول : ويمر ملك من الملائكة فيقول له ابن القارج أخبرني عن الحور العين اللاتي يقول فيهن الكتاب الكريم - إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين - فيقول الملك، هن على ضربين ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة ، فيقول وقد عجب بما سمع ، فأين اللواتي لم يكن في الدار القانية وكيف يتميزن من غيرهن فيقول الملك أقف أترى فيقتبعه فيجيب . به إلى حدائق لا يعرف كنهها إلا الله ويقول له خذ ثمرة من هذا الثمر فاهصرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ماشاء الله من الثمار فيهمصرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تهرق لحسنها حوريات الجنان فتقول من أنت يا عبد الله فيقول أنا فلان بن فلان فتقول إني أمي بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير ويقول هذا كما جاء في الحديث أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت به ما أطلعتم عليه - ، إلى آخر ما ساق فيه الحديث عن حور الثمار وأن من الثمار من تخرج منها أربع حوريات لا واحدة ولا اثنتان ولا ثلاث كما حدث في مواضع أخريات .

ومنه تخيله أن الله أعطى بشارا الأعمى في دنياه غيثين في آخرته لينظر بهما ما ينزل به من نكال ، وأنه إذا أغمضهما لكيلا يرى فتحهما الزبانية بكلايب من نار ، وكذا تخيله إعطاءه سبحانه عوران قيس الخمسة عيوننا لم ير أحسن منها في عيون أهل الجنان .

هذا ولم تعدم الرسالة أن يتعرض فيها للخيال الاستيعاني الذي يستعرض فيه الأدب الأشياء فينطقها أو ينطق عنها ، فيحسن التعرض لما أراد

من هذا حديثه عن الثور والجمار الوحشين وهو في زوخته للصيد مع عدى بن زيد حيث يقول « فاذا نظر إلى صوار ترتع في رياض الفردوس صوب الريح لأخس ذبال ؛ فاذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر قال الثور أمسك رحلك الله فاني لست من وحش الجنة التي أنشأها الله سبحانه ولم يكن في الدار الزائلة ، ولكني كنت أروض في بعض الغفار فمر بي ركب مؤمنون قد أكرى زادهم فصرعوني واستعانوا بي على السفر فعوضني الله بأن أسكنني في الخلود ، فكيف عنه الشيخ ، ويعمد إلى عالج وحش ما التذلل عنده بمحشى ، فاذا صار الخرص منه بقدر أتملة قال الجمار أمسك . يا عبد الله فان الله أنعم على ورفع عني البؤس ، وذلك أني صادني صائد بمخالب وكان إهابي له كالسلب . فباعه في بعض الأمصار فاتخذ منه غرب شقي بمائه السكرب وتطهر بزيفه الصالحون ، فشمعنتي بركة من أولئك فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب ، فيقول الشيخ . فينبغي أن تميزن ، فمن كان ممن دخل الغاية فما يجوز أن يختلط بوحوش الجنة ، فيقول ذلك الوحش لقد نصحتنا نصح الشفيق وسوف نمتل ما أمرت ،

ومنه حديثه عن أسد القاصرة حيث يقول « ويم ابن القارح فاذا هو بأسد يفترس من صيران الجنة وحسبها فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول في قلبه لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الايام لا يطعم سواها شيئا ، فيلمم الاسد أن يتكلم وقد عرف ما في نفسه فيقول يا عبد الله أليس أحدكم في الجنة تقدم له الصحيفة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذ بما أصاب فلا هو مكتف ولا هي الغاية ، كذلك أنا أفترس ماشاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز ، وأندري من أنا؟ أنا أسد القاصرة التي كانت في طريق مصر فلما سار عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة وقال النبي ﷺ اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، ألهمت أن أتجوع له أياما وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت بين الجماعة اليه فافترسته وأدخلت الجنة بما فعلت .

إلى غير هذين من ألوان الخيال الاستيحائي، وبه وبسابقه الابتكاري والبياني

يكون أبو العلاء قد جمع في رسالته هذه بين ألوان الخيال جميعا في أبدع تصوير وأجمل أداء .

وبعد فلعل من تمام هذا المبحث أن نذكر النبذة التي أنكر فيها الاستاذ العقاد على أبي العلاء الخيال في رسالة الغفران ثم نعقبها بالكلمة التي رد فيها الدكتور طه حسين عليه هذا الإنكار .

قال الاستاذ العقاد بعد أن أعجب بالرسالة وأن أحدا لم يسبق أبا العلاء الى مثلها .
« أما أن ينظر اليها كأنها نغمة من نغمات الوحي الشعري على مثال ما نعرفه من القصائد الكبرى التي يفتن في تمثيلها الشعراء ، والقصص التي يخترعونها المجردين أو ينظر اليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور والبس المعاني المجردة لبايس المدركات المحسوسة ، فليس ذلك حقا ؛ وليس في قولنا هذا غبن للمعري أو بخسر لرسالته الغفران ، كلا ، ولا هو ما يغضب المعري أن يمتثل هذا المثال في رسالته . »

وقال الدكتور طه حسين بعد كلام فيما كتب الاستاذ العقاد عن الرسالة في غير ناحية الخيال . —

ولكن الذي أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه في فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا في رسالة الغفران ، فإن هذا نكر من القول لا أدري كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ؛ نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه فهو بعد أن أنكر الخيال على أبي العلاء عاد فأثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخذع بهذا الاحتياط قارئنا غيري ؛ أما أنا فلن أنخدع له ، فهو ينكر على أبي العلاء أن يكون شاعرا عظيم الحظ من الخيال في رسالة الغفران ، سنة ، سوده ، كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن دانت إتماما شاعرا نابغة خالدا على المصور والاجيال وافقا من إعجاب الناس جميعا ، بشيء يشبه من كل وجه رسالة الغفران أستغفر الله ، إن من الاوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسة قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيرا ، وما الخيال ؟ أما اذا كان ملوكا تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لاشيء أو يولف أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على

حظ من الخيال، لأنه لم يخترع في رسالة الغفران شيئاً من الأشياء، ولم يؤلف بين متناقضات ولكنتنا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه المملكة خيالاً وإنما يسمونها وهماً، وهم يذهبوننا أن الخيال لا يخترع شيئاً من الأشياء وإنما يستمد صورته ونتائجه من الأشياء الموجودة، يؤلف بينها تأليفاً غريباً يبهز النفس ويفتتها، وإذا كانوا صادقين وأحسبهم صادقين، فخطأني العلماء من الخيال في رسالة الغفران لاحتله. ليس لاني الغلام حظ من الخيال! وإذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما؟ أليس لأن خيال أبي الغلام الخصب القوي قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفاً غريباً لذيقنا. لم يكن أبو الغلام ملزماً أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار. فدانت لم يخترع فرجيل ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم، وإنما استمدهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحي، ومع ذلك فهو صاحب خيال، وخياله هذا مصدر مجده الخالد، لا تنقل إن حظ أبي الغلام من الخيال قليل، بل قل إن حظله من الخيال عظيم جداً قيم جداً، خلق بالخلود، لأنه الخيال المنتج حقاً، هو الخيال الذي تجده عند دانت، والذي تجده عند أناطول فرانس بنوع خاص، وما أقوى الشبهة بين أناطول فرانس وأبي الغلام، فليس بين الرجلين إلا فرق واحد هو أن تشاؤم الكاتب العربي محزن مظلم، وتشاؤم الكاتب الفرنسي مبتهج مشرق، ومن عريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناطول فرانس على هذا النحو الذي يظلم عليه العقاد أبا الغلام، فقد اتخذ بعض الكتّاب الفرنسيين بكثرة ما يروى أناطول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى، فقالوا إن الرجل لاشخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل، ويكاد العقاد يقول هذا في رسالة الغفران، لأن أبا الغلام ملائها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين، ولكن غير العقاد خلق أن يتورط في مثل هذا الخطأ، فسر البلاغة - ولقد كدت أقول الإعجاز - أقوى وأظهر في رسالة الغفران من أن يتفله أديب كالعقاد.

السباعي بيومي

أثر الحضارة العربية في التربية^(١)

الاستاذ عبد الحميد مسمر

تفشد جميع الأمم الحضارة وتسعى لتظفر منها بالحظ الاوفى وتبذل جهدها في استكمال مقوماتها . ولا نبعد عن الحقيقة إذا فهمنا أن الحضارة هي هذا النهوض الذى تعمل الشعوب على تثبيت دعائمه في مختلف المظاهر الحيوية للفرد والجماعة ، وهذا النظام الذى يكفل للإنسانية عيشة راضية موفقة .

ولا بد لهذه الحضارة من دعائم لاقامة بنائها وتوطيد اركانها . وقد تختلف الشعوب فيما تتخذ لحضارتها من أسس ، وفيما تمتط من سبل ولكنها في الغالب ترمى إلى الحياة الرغدة والى خير الفرد والمجتمع .

والحضارة الحديثة هي ميراث كونه أمم مختلفة ، وبناء تعاونت شعوب وأفراد على إقامته . وأن أوفر الأمم والأفراد حظاً هم الافذاذ الذين قويت همهم وصحت عزائمهم على الخير ، واتجهت مواهبهم إلى نبيل الغايات .

وان بناء الحضارة هو صورة للإنسان وجهوده ، وفيه مقوماته من جسم وعقل وخلق . فللحضارة مظهرها وزخارفها ، ولها أسسها العقلية وألوانها الخلقية وطابعها الذى به تتميز . ومن أنواع الحضارة ما ليس له الا الجسم والمظهر الزائف المريع الزوال ، ومنها ما له دعائم قوية من العقل والخلق وهو أثبت الأنواع وأقواها ، وهو الذى تبقى آثاره على مرور الأيام .

وإذا أردنا أن نصور ما عسى أن يكون للحضارة من مقومات تشبه ما للإنسان

من مواهب وصفات ، فانا نجد ذلك في التربية العقلية والخلقية . فالصلة اذن وثيقة بين الحضارة وعناصر التربية . ولا غرابة في ذلك ، فقد عرفنا أن الحضارة من عمل الانسان وفيها تتجلى صفاته . وأرسخ الحضارات قدما وأقواها شأننا ما قام على العقل الراجح والخلق القويم .

وهناك ناحية أخرى لها في الحضارة وفي التربية أثر وهي هذه الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحياة الصحيحة وهي : الحرية والعدالة والمساواة ، ولقد كان لحضارة العرب حظ عظيم من هاتين الناحيتين وهما ناحية التربية والثقافة ، وناحية هذه الدعائم الثلاث التي عليها بقاء الأمم وأمنها وسعادتها ، فقد كان شعارهم في كل ما فتحوا من بلاد وأمصار أن ينشروا الثقافة و يقيموا الدعائم للحضارة . وسنجمع القول في آثارهم في التربية قبل الاسلام وبعده :

كانت فطرة العرب وبيئتهم وحياتهم وصفاتهم العقلية والخلقية في العصر الجاهلي هي الصفحة الأولى الناصعة التي خطت عليها أصول حضارتهم . ومن الشعوب من رزقوا حظا من الاستعداد يجعل نصيبهم وافراً من النعوض والحياة الصالحة حينما تتاح الفرص وتتوافر الاسباب . وقد فطر العرب على الحرية واكسبتهم بيئتهم الصحراوية صفاء في الذهن وسرعة في الخاطر ودقة في الملاحظة ، وكان لهم بحكم العنصر من المواهب مالاخوانهم النكدانيين والبابليين والفيلقيين الذين سجل لهم التاريخ آثارهم وحضارتهم ، غير أن العرب في الجاهلية لم تنح لهم فرصة من خصب الارض وثروتها ، فلم تكن حضارتهم مؤسسة على ما تغل الارض من ثروة زراعية أو معدنية ، أو على شادق المبانى وضخم المؤسسات ، بل كانوا كالعصامي الذي لا عدة له الا مواهبه التي أمدّه الله بها ، ولا سند له الا سمعیه وجده ، ولا عون له الا عقله الذي يسترشد به ، وذكاؤه الفطري الذي يهديه الى طرائق الحياة . وقد اكسبهم كل هذا ميلا الى عيشة الاستقلال والاعتزاز بالشجاعة والفروسية .

وقد أشار د توماس كارليل ، في كتابه د الابطال ، في وصف العرب الى شيء

من هذا فقال . لأحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويتناجون أسرارها ، إلا أن يكونوا أذكاء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي الفكر . . .

وقال أيضا : والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذا وأبيكم رأس الفضائل وذروة الشرف الباذخ .

وكانت تربيتهم لاولادهم تسير على غرار هذه الصفات فكانوا يفتشونهم على نهجهم ويعلمونهم ركوب الخيل والرماية ويغرسون فيهم شيم الكرم والمروءة والوفاء والتجدة ، ويمثلون قلوبهم وعقولهم بنصائحهم .

وكانت مدرسة الحياة هي معيهم . وكتاب الطبيعة هو مصدر معارفهم ، فنظروا في السماء ونجومها ، ولاحظوا السحب ومهاب الرياح . وانطلقت السننهم بالبيان الرائع والشعر الرصين ، وأثر عنهم في أقوالهم ما يعد دروسا نافعة في الحياة .

فمن ذلك ما قال علقمه بن لبيد يوصي ابنه :

يا بني اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا صحبته زانك ،
وأن خدمته صانك . وإن أصابك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن
صلت شد صولك . وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ،
وإن سأله أعطاك ، وإن سكنت عنه ابتداك وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك .

وقال اعرابي لرجل :

أى أخى إن يسار النفس أفضل من يسار المال ، فإن لم ترزق غنى فلا تحرم
تقوى ، قرب شبعان من النعم ، عريان من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خير ،
ترحب به الأرض وتستبشر به السماء ، وإن يساء اليه في بطنها وقد أحسن على ظهرها .
وقالت اعرابية توصي ابنا لها أراد السفر .

أى بنى اجلس امنحك وصيتى وبالله توفيقك فإن الوصية اجدى عليك من
كثير عقلك . أى بنى ، اياك والنميمة فانها تزرع والضغينة وتفرق بين المحبين ،

واياك والنعرض للعيوب فنتخذ غرضنا وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ،
وقلنا اعتبرت السهام غرضا الا كنهه حتى يهسى ما اشتد من قوته ، واياك والجلود
بدينك والبخل بمالك ، واذا هزرت فاهز كريمة بلن لمزتك ، ولا تهزز اللثيم فانه
صخرة لا يتفجر مائرها ومثل لنفسك مثال ما استجسنت من غيرك فاعمل به ،
وما استجبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه ،

وغير ذلك كثير مما يدرس الآن دراسة أدبية لا علمية . ولا تهذيبية . ولو
درست هذه الآثار من الناحية التربوية لا تضح أن فيها كثيرا من الاصول النافعة
التي جادت بها هذه العقول التي نشأت في كنف الفطرة .

يتضح من هذا أن العرب في الجاهلية على سذاجة حياتهم وأميةهم كان لهم حظ
من الثقافة العقلية والخلقية بأسلوب طبيعي خال من مظاهر الدرس والبحث ، ولم
تكن تربيتهم في معهد أو مدرسة بل في رعاية الاباء والامهات ، وفي أحضان
البيئة والحياة العملية وهم وان لم يكن لهم نصيب من الثقافة المنظمة ذات الصانع
الحديث بدراسة العلوم والفنون ، كان لهم حس مرهف وذكا فطري وصفات
كريمة سجلها التاريخ . وكان بيانهم الرائع من أعظم مفاخرهم ، يتناقلونه شفاهها
دون قلم أو قرطاس . فيراعهم هو اللسان ، وقرطاسهم هو صفحات عقولهم . ولهم
في الجدل وقوة الحجة مقدرة رسخت في دمائهم ، وكانت مجامعهم وأسواقهم منتديات
للنقد وللادب . فهم وان كانوا أميين من حيث القراءة والكتابة لم يكونوا أميين
في عقولهم أو تجاربهم . بل كانوا على جانب محمود من الثقافة الطبيعية الحيوية .
ذلك لان الامية شيء والثقافة شيء آخر ، فكم من أمي له عقل المثقفين ، وكم من
مثقف ثقافة تقليدية لا يعد الا في مستوى الاميين .

هذه هي المرحلة الاولى أو المدرسة الاولى للتربية العربية . وهي مرحلة نستطيع
أن نشبهها بالمرحلة الاولى من التعليم . ولعل فيها من الأسس والاصول ما تستبشر
به التربية الحديثة التي تعبد بالحرية وتغتنب بالمخايل الصافية للفطرة السليمة .
فلننظر إلى حالة العرب حين انتقلوا إلى المرحلة الثانية من مراحل التعليم
ودخلوا المدرسة التي وضع الاسلام أسسها

ففي هذه المرحلة انتشر الاسلام وامتلات بتعاليمه قلوب العرب ، وامتزجت فضائله بنفوسهم . وقد نبت الاسلام أصول العدل والحرية والمساواة والديمقراطية . وهناك ظاهرة واضحة في الفتوح الإسلامية . وهي أنها لم تكن استعمارا ، بل كانت ترمى الى نشر الدين وإشاعة فضائله لمن شاء أن يعتنقه عن رضا واقتناع ولم يكن المسلمون يعملون على نحو الأجناس بل كانوا يمتزجون بها بالمصاهرة . وللإسلام في أصوله كثير من المرامي الإصلاحية والنواحي التي تنهض بالشقافة وترقى بالعقول وتهذب النفوس . فقد نشر أصول الحياة الصالحة واعتد بالمواعب الإنسانية وغذاها من مناهل الثقافة . وفوق كل هذا جاء رافعا لواء العلم مشجعا على طلبه ، وتحجلى ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله وأوامره .

فمن ذلك قوله تعالى . يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أو تروا العلم درجات — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الالباب — يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يتذكر الا أولو الالباب

وقال صلوات الله عليه . لا جسد إلا في اثنين رجل آمنه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها . وروى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلوات الله عليه دخل المسجد فإذا هو بجلسين أحدهما يذكرن الله تعالى والآخر يتفقهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا المجلسين على خير . وأحدهما أحب الى من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعه . وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ، وجلس الى أهل الفقه

وقال عليه الصلاة والسلام . لا تسمعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم والتباس بصائرهم . وقال عليه الصلاة والسلام : يحمل العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وغير ذلك من الشواهد كثير وهذا التشجيع العلى ظاهرة واضحة في الدين الإسلامى ، وهو الذى حفز المسلمين من العرب وغيرهم على الاهتمام بالتعليم ومجاهده

وكتبه وما يتصل بذلك . وكان كل هذا أساسا لهذه النهضة العلمية المباركة التي عمت العالم . وأحييت ما كان قد طمسه الزمن وطال عليه الأمد وغفلت عنه العقول وكانت الخطوة الأولى التي بنى عليها النهوض التعليمي في الإسلام هي نحو الأمية فالدين نفسه يتطلب معرفة القراءة ، وأول ما نزل من القرآن الكريم آيات فيها الإشادة بالقراءة والتعليم :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)
وفي غزوة بدر كان فداء الأسرى أن يعلم كل منهم عشرة من الأطفال القراءة والكتابة

وقد عنى المسلمون بطلب العلم يحفزهم اليه هذا الدافع الديني ، وكان نهجهم في ذلك متدرجا طبقا لتدرج حضارتهم ، وامتداد ملكهم ، وكثرة تجاربهم واتساع افقهم الحيوى ، وساروا في ثقافتهم العلمية في مراحل :

١، فكانت المرحلة الأولى هي تفهم القرآن الكريم وحفظه ، والقرآن هو أساس الدين وعماد ما فيه من تشريع وإرشاد في شئون الحياة للفرد والأسرة وللجمتمع ، وهو أساس ثقافى شامل ، وقد تفرعت من دراسته علوم شتى استلزمها فهمه ، كاللغة والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ومشاهد الكون وغير ذلك من شعب الثقافة . ونشأ عن هذا أيضا تدوين العلوم وتأليف الكتب المختلفة في كل فرع منها . وكان الهدف لكل هذا هو معرفة أصول الدين وأحكامه وتفهم ما فيه مما يكفل الخير والإصلاح

ولعلنا اذا تلمسنا سببا لهذه الدراسة الشاملة للقرآن الكريم والاشتغال بالعلوم المتعددة التي يتضمنها تفهمه فانا نجد أن هذا أشبه بطريقة تجميع مواد الدراسة التي بنيت على مبادئ دهربات ، أو بطريقة المشروع وهي من أحدث طرق التعليم وتستخدم الآن في مصر في المدارس النموذجية بالقاهرة وهي طريقة يختار لها موضوع أساسى يتخذ محورا للدرس ثم يترك للمتعلمين البحث فيه من شتى نواحيه على حسب ما تتجه اليه عقولهم وما يمت الى الموضوع بصلة ولهذه الطريقة فوائد التي أوضحها علماء التربية

سار المسلمون في هذه المرحلة من الدراسة سيراً مقروناً بالهمة والنشاط وكانت أساليبهم في البحث والتفكير تجرى على الطرق الاستنباطية والقياسية فكانوا يتبعون الجزئيات للوصول إلى القاعدة الكلية، ثم يعمدون فيطبقون هذه القاعدة على الأحوال الجزئية. وقد ظهر ذلك جلياً في علوم كثيرة وأخصها بحوثهم في الفقه الإسلامى وأصوله ونظرياته العامة ولهم في ذلك من الدقة المنطقية ما يقدره المؤرخون في عصرنا الحديث

(٢) المرحلة الثانية أو الوثبة الثانية

وفيها اتجه المسلمون في دراستهم وبحوثهم إلى العلوم الكونية وهي الفلسفة والرياضة والعلوم وما إلى ذلك مما يسمى الآن في بعض المعاهد العلوم الحديثة وأن ما تشجع به المسلمون وما أيقظه فيهم الإسلام من حب البحث والدرس حفزهم إلى أن يبحثوا فيما خلفه اليونان وغيرهم من فلسفة وعلوم وليس في الدين الإسلامى ما يمنع ذلك مادام بعيداً عن المساس بالعقيدة أو إفسادها فإن البحث وراماً لحقائق الكونية أو العلمية ومعرفة ظواهر الطبيعة وأسرار ما خلق الله كل هذا مما يبحث عليه الدين الإسلامى. فإن للإسلام إلى جانب ميادين الدين والعبادة ميدانه المبدئى والسياسى والاجتماعى

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التى تتضمن الحث على النظر والتفكير قال تعالى «أو لم ينظروا فى مآلات السموات والأرض وما خلق من شئ» - «أن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ونصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدل على حقيقة ثابتة وهى أن الإسلام كان منشطاً للحياة العقلية مشجعاً على البحث والتفكير مثبتاً أصول الاجتماع فى تطبيق الأحكام الدينية، منكرراً المحاكاة العمياء، رافعاً من شأن العقل الإنسانى. وقد شد أزر الفلسفة وغذاها، لأن قواعده فطرية لا تنافى المنطق والتفكير السليم. لهذا عكف المسلمون على الاشتغال بما ترك اليونان وغيرهم من علم وفلسفة، ونشطوا ترجمة ذلك، وكافوا المترجمين بالمال الكثير.

نشط ذلك أيام أبي جعفر المنصور ثانی الخلفاء العباسيين ، ثم جاء الرشيد حفيد المنصور فبهر ملوك أوروبا بما وصل اليه العرب من علم وثقافة واختراع . وجاء المأمون فأتم ما أسسه سابقوه من الخلفاء . وفي عهده ازدادت العناية بالفلسفة وبالبحث والجدل . وكان للعلماء عنده شأن ومكانة عالية . وكانت مجالس المناظرة والجدل في عصره من أخص الظواهر التي تدل على النشاط والبحث ، والتاريخ الأدبي حافل بذلك .

وقد سار خلفاء المسلمين وملوكهم على هذا النهج من الاهتمام بالعلم والترغيب في طلبه . وظهر الاشتغال بالفلسفة وبالعلوم الكونية في جميع مظاهرها واضحا في جمعية أخوان الصفا التي ألفت في القرن الرابع الهجري . وقد جوت رسائلهم أنواعا من العلوم الحسية والعقلية والفلسفية . وتعتبر هذه الرسائل صورة من المنهج الشامل للثقافة العربية في نواحيها العلمية والفنية والفلسفية .

وقد وصلت الثقافة العربية غايتها في القرن الرابع الهجري . وكان مركز هذه الثقافة الشاملة العالمية بمدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية ومنها كان ينبعث نور العلم والحضارة ، وفي كنف خلفائها نضجت الذخائر العلمية القديمة ووضعت أسس الثقافة التي سطعت على العالم وأبقت الانسانية .

وكان العرب في تلك العصور هم حملة مصباح الثقافة ، وقد أخذ ضوءه يشع ويسطع ويعم الممالك الشرقية ، ثم انبعث نحو الغرب بجنازا افرريقية إلى المحيط . ومن هذا المضيق الذي لا يزال يحمل اسماء عربيا وهو مضيق دجيل طارق ، عبر العرب إلى الأندلس فوطدوا في هذا الأقليم ملكهم ، ونشروا حضارتهم وثقافتهم ، وظهرت فيه مواهبهم ، وكان للفن الجميل شأن في عهدهم ، تدل على ذلك آثارهم الرائعة التي لا تزال ماثلة في ربوع الأندلس للآن .

وقد سار العرب في اسبانيا على غرار ما كان في بغداد من العناية بالعلم والاهتمام بنشر الثقافة وإذاعة العرفان ، وكان الاتصال العلمي وثيقا بين المدينتين العظيمتين بغداد وقرطبة ، وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المشرق والمغرب رغبة في التعلم والتعليم .

وقد عرف ملوك أوروبا للخلفاء في الاندلس مثل ما عرفوا للخلفاء بغداد ، فارس ملك الروم لعبد الرحمن الناصر الهدايا الثمينة ، وكان لاستقبال رسله حفل رائع في قرطبة سجلت كتب الأدب وصفه الممتع .

وقد تقاطرت وفود الأوربيين على الاندلس ، وعظم نزوح طوائفهم إليها للاخذ عن العرب ، وكان العرب على عادتهم يذيعون العلم ولا يكتُمونه ، وبسبب ذلك على النهج الديمقراطي الذي طبعت به حضارتهم وحياتهم . وفوق هذا قد امتزجوا بأهل الاندلس امتزاج مصاهرة واتلاف ، فكان كل هذا دعائنا إلى الاطمئنان والنشاط العقلي .

•••

سارت عاصمتا المشرق والمغرب بغداد وقرطبة تتنافسان في الاستزادة من العلم وتبثت دعائمه ، وكانت هذه المنافسة خيرا على العالم . ثم ظهر منافس ثالث وهو مدينة القاهرة ، وكان مظهرها في الفنون أقوى منه في العلوم . وقد نشطت هذه العواصم الثلاث وسارت سيرا حثيثا تحدد الثقافة بعنايتها وتبذل للعلم ورجاله معونتها فيبقى العالم من ذلك أطيب الثمرات . وكان لهذا النشاط أثره في النهضة العلمية في العالم بعد أن خمدت جذوة العلم والبحث في العصور الوسطى في أوروبا . والفضل في هذا يعود إلى العرب ونهضتهم وما جاء به الإسلام من مبادئ شجعت العلم ونشطت التعليم وأشاعت الثقافة وأعادت للعقل حريته وبكائه .

لم يقتصر النهوض العلمي ، الذي ائبغ بعناية العرب ، على البحث والدرس ، ولا على ما كشفه المسلمون من أصول علمية وفنية ، بل أن العرب عملوا على نشر العلوم والثقافة بوسائل وهي :

معاهد العلم - التأليف - المكتبات

أما المعاهد العلمية فكانت في أول الأمر في المساجد التي كانت تقام فيها حلقات العلم ومجامع الإرشاد ومنازل الخطابة الدينية والسياسية والاجتماعية . ثم أنشئت المكتبات بجانب المساجد لتعليم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة .

وقد أنشأ العباسيون المدارس يتعلم فيها الخاص والعام . وقد أمر هارون الرشيد

أن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فتابع الخطأ ، وازداد العلم والتعليم في عهده نشاطا وذيبوعا حتى شملت المدارس الملكية الإسلامية جميعها على سعتها .

واهتم العباسيون كذلك بترجمة العلوم واعداد التراجم فأنشئوا في بغداد مدرسة ألسن لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطوري ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم فيها بحانا ستة آلاف تلميذ .

ولم يرتض المأمون أن يكون تقدم الفنون منوطا بسخاء الخليفة بل رصد لذلك أموالا ووقف عليها أوقافا دائمة فتحت بها مدارس في جميع المملكة ، وأحضر لديه كثيرا من علماء اليونان والفرس والسكندانيين وأباح لهم الالتحاق بالوظائف الحكومية . وبما بذلك ما كان شائعا من أبعاد الاجانب عن مناصب المسلمين . وقد سار ملوك الاسلام من الفرس والسلاجقة والأتراك على هذا النهج فاهتموا بإنشاء المدارس . ومن أهمها المدرسة النظامية والمدارس السكثيرة التي أنشأها المماليك في القاهرة .

ومنها أيضا المدرسة المستنصرية في بغداد وهي من أعظم آثار المستنصر بالله الخليفة العباسي . وأنا نسوق ما جاء في وصفها من كتاب : تراث الاسلام ، في المقال الذي وضعه ، الفرد جيوم ، الخاص بالفلسفة واللاهيات :
« ولكن أعلى الجامعات الإسلامية ذكرا وأرفعها مكانا هي المستنصرية ، وقد

أسست ببغداد سنة ١٣٣٤ م

وقيل أنها فاقت كل ما سبقها في الاسلام من دور العلم في مظهرها الخارجي وأبهة زخارفها وفاخر أبنائها واتساع بانياتها ووفرة أوقافها . وكانت تضم أربع مدارس مستقلة للشريعة ، تقوم كل منها بتدريس مذهب من المذاهب الأربعة .

ويتولى أمرها استاذ يعهد اليه بخمسة وسبعين طالبا (فقيها) يلقيهم العلم دون أن يسألوا على ذلك أجرا ويتقاضى الاساتذة الأربعة هرتبا شهريا كما يتقاضى كل طالب دينارا من الذهب كل شهر .

وكان للدرسة - الى جانب هذا - مطبخ غني بمد الاساتذة والطلاب بجرايات يومية من خبز ولحم .

ويقول ابن الفرات ان المستنصرية كان بها مكتبة عامرة بالكتب النادرة في شتى العلوم قدر تبت بحيث يسهل رجوع الطلبة اليها ويتيسر نسخ المخطوطات للراغبين في نسخها ، وكانت ادارة المكتبة توزع على الطلاب ما يحتاجون اليه من ورق وأقلام وتزودهم فوق ذلك بالمسارج وما يلزم لاضافتها من زيت الزيتون كما كان بالمسكن صهاريج خاصة بتبريد مياه الشرب وساعة حائط في بهو المدخل ، ولا شك في أنها كانت نوعا من أنواع الساعات المائية ، كما كان في داخل المعهد حمام للطلاب وبيارسان عين له طبيب كان عليه أن يحضر كل صباح ليصف للرضى ما تتطلبه حالتهم من دواء كما ضمت المدرسة نخازن كبيرة قد زودت بجميع أنواع الطعام والدواء ،

(المكتبات)

وهي مظهر من مظاهر النتاج العلمي والاهتمام بالتدوين ، وعون على البحث والتحصيل ، ولها الآن مكانة في معاهد العلم على اختلاف درجاتها .

وقد عنى المسلمون بانشاء دور الكتب العامة والخاصة ، فانشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد ، وانشأ الحاكم بامر الله الفاطمي دار الحكمة في القاهرة ، وكانت مكتبة قرطبة تحوى كثيرا من الكتب في شتى المباحث العقلية والنقلية التي الفها أو ترجمها العرب في مختلف أنواع المعرفة . وكان الحسك بن عبدالرحمن الناصر مغرما بجمع الكتب ، وكان يبعث التجار الى الاقطار وينزودهم بالاموال لشراؤها ، وكان كذلك يجمع في داره المهرة في صناعة النسخ والضبط والتجليد للقيام بما تتطلبه الكتب من اعداد ونقل

كل هذا كان في تلك العصور التي لم تنتشر فيها الطباعة ولم يكن المؤلفين والدارسين من وسيلة الا الكتابة والنسخ بالأيدي . ولا تزال طائفة من هذه المخطوطات العربية التي لم تخرج إلى أيدي القراء بعدد لا يحصى على هذه النهضة العلمية المحمودة ونرجو أن تنبجها الهمة الى اظهار هذه الذخائر حتى تتم الاستفادة منها .

سارت هذه النهضة العربية الاسلامية تنشر العلم والثقافة وتحارب الجهل الذي كان يخيم على العقول . وقد نبعت من بلاد العرب وعمت المدن الاسلامية في البصرة والكوفة ثم بغداد وانتشرت في الممالك الشرقية ثم عبرت البحار الى بلاد الاندلس فازدادت ازدهارا بعد أن تجمع للعرب كثير من ألوان العلم والمعرفة وقد أخذ عرب

الاندلس هذا التراث الشامل ودرسوه وتنافسوا في البحث فيه، حتى في عصور الانقسام واستقلال بعض الحكام باطراف البلاد وأجزائها كان تناقض هؤلاء الملوك في العلم وتنشيطه عظيمًا بل كان هو الوسيلة لتثبيت النفوذ وإقرار السلطان. وكان ذلك في الشرق والغرب معًا.

ومن الاندلس سطعت أنوار العلم والرؤية على أوروبا فاتخذ أهلها عن العرب نظام الجامعات ووسائل البحث والدرس ورأوا في اللغة العربية المعين الصافي لشتى العلوم ووجدوا أن العرب قد نقلوا ما في الثقافات القديمة اليونانية وغيرها وحضروا ذلك وهذبوه وأضافوا إليه ما يضيفه العالم الدارس وبذلك ظفرت أوروبا بهذه الذخائر العلمية فكانت عونًا لها في نهضتها.

ومن هذا يتضح أن العرب كانوا أبطال تلك الأيام وأن فضلهم على الثقافة عظيم بما أذاعوا من علم، وما أقاموا من مدارس وجامعات، وما ألفوا أو ترجموا من كتب وما أنشئوا من مكتبات، وما قاموا به من حفز التفكير وإيقاظ العقول وتشجيع البحث والاهتمام بالتربية الاستقلالية، وكانوا وحدهم أساندة العالم عدة قرون. وأن جامعات أوروبا لم تستغن عن تدريس ما نقل إليها من مؤلفات العرب إلا في الازمنة الأخيرة.

وقد قال العلامة سيديو :

« ان السكروز الادبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلًا على نشاطهم الفكري، وتؤيد الرأي القائل بأن العرب هم أساندة في كل شيء ».

ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الفني من التربية وهو الطرق التي كان العرب يتبعونها في بحثهم العلمي والاساليب التي كانوا يسلكونها في التعليم، وهو الجانب الذي تعنى به معاهد التربية ويهتم به رجالها الآن.

أما طريقة البحث فقد كان أساسها في العزم هو التجربة والسير على الأسلوب المنطقي، وقد ساروا على هذا النهج في علومهم النقلية منذ بدءوا يشتغلون بالعلوم الشرعية في فجر نهضتهم. وإن أروع وادق ما استحدثوا ذلك العلم الذي وضعوه على غير مثال سبق وهو علم الأصول « اصول الفقه »، وإن الذين يتبعون مسأله وبحوثه

المتنوعة يرون فيه لونا دقيقا من ألوان البحث العلمي ويجدون من القواعد العامة والإساليب الاستنباطية والاستقرائية والنظريات العلمية في كل مذهب من مذاهب أئمة المسلمين ، ما يدل على عبقرية ومنطق سليم . وقد ساروا على هذا النهج في بحوثهم العلمية والكونية والفلسفية ، وكانت التجربة أساس نتاجهم العلمي .

ويقول الأستاذ جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب :

يقول الاوربيون ان ديبكون ، أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية ، ولكن الانصاف يقضى بأن نعتزف بأن الفضل في ذلك للعرب وحدهم . وقد أبدى هذا الرأي مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب وقال العلامة سيدو :

إن من أهم ما اتصف به جامعة بغداد منذ البداءة هو روحها العلمي الصحيح الذي كان سائدا لها في استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات ، وفي عسدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد .

وقد كان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا في استكشافاتهم المفيدة .

هذه هى طريقة العرب فى الدرس والبحث ، على حين كانت الطريقة فى أوربا هى دراسة الكتب والاقتصار على رأى المعلم .

وأما طريقتهم فى المواد الأدبية والنقلية فهى ان يعد الأستاذ درسه ويكتب الموضوع ثم يلقى على الطلاب بعد الحوار والشرح وهم يكتبون عنه . ثم تكون هذه الدروس كتباً وإمالى تفسر بين الناس فى علوم مختلفة . ولدينا الآن طائفة من هذه الكتب والإمالى

وبعد ان تكونت طائفة صالحة من المؤلفات أصبحت الطريقة ان يتخير الأستاذ كتابا يدرسه مع طلابه ويشرح لهم موضوعاته ويحاورهم فى مسائله . وبعض الاساتذة يكتبون تعليقات على الكتاب الذى يشرحونه تسمى الحاشية ، وبعضهم يضيف الى الحاشية شروحا وإضافات تسمى التقرير ، وقد طبع من كل هذا أنواع لانزال الى الآن فى الكتب الازهرية .

وكانت هذه الطريقة متبعة في المعاهد العلمية في الشرق وفي الازهر ، ولا تزال بقية منها ليست بالقليلة في المعاهد الدينية بعد أن دخلت في دورها النظامي الجديد ومن حسنات هذه الاساليب ذلك الحوار الذي يشبه حوار سقراط ، وان كان قد تحول في عصور المهبط العلبي الى جدل حر في قليل الجدوى يدور حول الألفاظ والعبارات في كثير من الاحيان .

•••••

أما النواحي الفنية في التدريس وأصوله فلهم منها نصيب له شأن : لهم في علم النفس وعلم الاخلاق ما يعتبر أساسا صالحا لفهم الطبيعة الانسانية وطرق تهذيبها وتربيتها ووسائل كسبها للعلوم . ولهم أيضا بحوث كثيرة في التربية الخلقية وفي العناية بالفضائل الانسانية وطرق غرسها في نفوس الناشئين . ولهم كذلك طرق عملية في تخيير مناهج الدراسة وفي وسائل التدريس وأسابيه .

•••••

في النواحي النفسية نجد بحوثا لها قيمتها فيما كتبه ابن سينا في كتابه الشفاء وفي مختصره وهو كتاب النجاة

فقد أوضح في المقالة الخاصة بالنفس في كتاب النجاة كثيرا من الاصول النفسية فحدث عن النفس باعتبارها جنسا وقسمها ثلاثة أقسام :

النباتية والحيوانية والانسانية موضحا الفروق بين هذه الاقسام .

ثم قسم النفس الحيوانية إلى محرك ومدركة ومن الحركة : القوة النزوعية والشوقية والقوة الشهوانية والقوة الغضبية

والمدركة قسمان : قوة تدرك من الخارج وهي الحواس الخمس ، وقوة تدرك من الباطن ، ومن هذه ما يدرك الصورة ومنها ما يدرك المعنى . ثم تكلم عن الحس المشترك وهو قوة تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس .

وتكلم أيضا عن الخيال وعن النفس الناطقة وعن القوة النظرية التي من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة — وهذا هو إدراك الكل ، وعن الفرق بين إدراك الحس وإدراك التخيل وإدراك الوهم وإدراك العقل — وهذا شبهه بالإدراك الحسي والإدراك العقلي في كتب علم النفس الآن .

وتعرض أيضا الى طرق اكتساب النفس الناطقة للعلوم والى اختلاف المتعلمين فى استعدادهم وفيما لهم من ذلك بحكم الخلقة .

وفى رسائل إخوان الصفا كذلك بحوث نفسية لها قيمتها عن قوى النفس .
وهى خمس قوى حساسه هى الحواس وخمس قوى أخرى وهى : المتخيلة — المفكرة — الحافظة — الناطقة (أو المعبرة) — الصانعة . وتفصل الرسائل انتقال المحسوسات من المتخيلة إلى الحافظة لتبقى إلى وقت الحاجة ، ثم تتناولها القوة المعبرة وتعبّر عنها ثم تقيد بالكتابة . وفيها أيضا بحوث فى النفس الناطقة والشهوانية والغضبية ، وكذلك فى الحاس والمحسوس وفى الحس والاحساس وفى كيفية الادراك فى الحواس المختلفة وكيفية وصول آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة وكذلك فى طاقة الانسان من المعارف ، وفى بيان الاخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عطلها وفى أمراض النفوس وعلاجها ، إلى غير ذلك من مختلف البحوث التى تعتبر أساسا صالحا للتربية العقلية والخلقية .

وتتمتاز هذه الرسائل بأنها تسوق كل هذا فى أسلوب مقرون بضرب الأمثلة وبالإيضاح الذى يقرب الحقائق للإذهان ، مما يدل على مهارة واضعها ومقدرتهم التعليمية .

وهذه الرسائل تعتبر صورة لمنهاج ثقافى لمرحلة ثانوية تجمع كثيرا من ألوان المعرفة التى نحرص على أن يتعلمها شباننا فى عصرنا الحاضر .

وقد الفت نظرى فى هذه الرسائل موضوع هو أشبه بمنهاج دراسى مصور أو مشفوع بوسائل الإيضاح .

فقد جاء فى احدى هذه الرسائل ما يأتى :

« ذكروا أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه . فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إياصهم إلى مجلسه لأنه لا يطيق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمراضون فى العلوم المتخلقون بالأخلاق الجميلة المبرهون من العيوب .

ف رأى من رأى الرصين والحكمة أن يبنى لهم قسرا على أحكم ما يكون من

البنيان ، فأفرد لكل واحد منهم مجلسا وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه في جوانب ذلك المجلس ، وصور فيه كل شيء أراد أن يـذهبهم به . ثم أجلسهم في ذلك القصر ، وأجلس كل واحد منهم في حصته المعدة له ووكّل بهم الخدم وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ما صوّرت لكم بين أيديكم واقروا ما كتبت فيه من أجلكم ، وتأملوا ما بينت لكم ، وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من أجل ذلك حكماء أخيارا فضلاء . أبرارا فأوصلكم إلى مجلسي فتكونوا سعداء منعمين أبدا .

وكان مما كتب لهم في ذلك المجلس من العلوم :

(١) ان صور في أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج مطالعها ، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها .

(٢) وصور في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار ، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك .

(٣) وكتب في صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها ، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها .

(٤) وكتب في الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات .

(٥) وكتب في الجانب الآخر علم الدين والممل والملل والشرائع والسنن والحدود والأحكام .

(٦) وكتب في الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيش والاعوان .

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك .

وهذا مثل ضربته الحكيم .

ذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى — والاولاد الصغار هي الإنسانية —

والقصر المبني هو الفلك بأسره — والمجالس المتقنة هي صورة الانسان — والآداب

المصورة هي عجيب تركيب جسده - والعلوم المكتوبة فيه هي قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فصلاً فصلاً .
وانا لنجد في كل هذا نظاماً تعليمياً يستحق الرعاية من رجال التربية في عصرنا الحديث .

• • •

وليس هذا فحسب هو ما نجد للعرب من البحوث في التربية والتعليم . فأنا نجد كذلك لبعض الباحثين آراء عملية لها مكانتها ، إذا قيس بمقياس الآراء الحديثة في التربية .

فالفزالي له في هذه النواحي آراء نافعة في كتاب « أحياء علوم الدين » فمن ذلك :

« آداب المتعلم » :

(١) طهارة النفس عن مذموم الأوصاف

(٢) ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويتدبى بالآدم .

(٣) أن يعلم نسبة العلوم إلى القصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره .

« آداب المعلم »

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يحرمهم مجرى بنية .

(٢) ألا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً .

(٤) الوظيفة الرابعة وهي من دقائق صناعة التعليم :

أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التهريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراءة ويهيج الحرص على الإصرار

(٥) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلتقى إليه ما لا يبلغه عقله فيثقله أو يثبط عليه عقله .

ومن ذلك بجوئه في الاخلاق وحقيقة الخلق وما ينال به حسن الخلق ، وفي تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ، وبيان علاقات حسن الخلق .
ومن ذلك ما ساقه في رياضة الصبيان ووجه تأديبهم :-

(١) أن يمدح عنده الصبي المتأدب .

(٢) أن يجازى على ما يظهر منه من خلق جميل وفعل محمود

(٣) لا تنكسر القول عليه بالعتاب .

(٤) أن يعود في بعض النهار المشى والحركة والرياضة

(٥) الحفظ من قرناء السوء

(٦) أن يؤذن له بعد الانصراف من الدروس أن يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب المكتسب بحيث لا يتعب في اللعب . فان منع الصبي من اللعب وارهقه الى التعليم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكاهه وينقص عليه العيش .
ولابن خلدون في مقدمته آراءه لا بأس بها وقد ساقها في الفصل الذي عقده في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه :
فتحدث فيما يأتي :

(١) في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

(٢) في أصناف العلوم الواقعة في العمران .

(٣) في أن كثرة الاختصاصات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم .

(٤) في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته :

١ - وذلك أن تلقين العلوم إنما يكون مفيداً اذا كان على التدرج .

٢ - لا ينبغي أن يزيد المتعلم على ما تنسج له طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو فقيهاً .

٣ - وبحث في الفكر الانساني وفي النظام المنطقي للتفكير .

٤ - وفي تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه ، في المغرب

وفي الاندلس ، وفي افريقية ، وفي المشرق

٥ - وبحث أيضا في طريقة معاملة المتعلمين وفي أن الشدة مضرة بهم ثم ختم ذلك بذكر نصيحة الرشيد للأحرر الشيباني معلم ولده الأمين وهي :

« يا أحرر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ومثمة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فلن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامتنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت منتهم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة ،

هذه صفحة من جهود العرب في التربية والتعليم ونشر الثقافة ، وأنها لصفحة بجيدة يفخر بها التاريخ . ولنا نبغى بعرضها أن نغض من جهود علماء العصر الحديث في التربية أو أن ندعى أن الأول لم يترك للآخر شيئاً كما يقال ، ولكننا إنما نسطر الواقع ونسجل لذوى الفضل جليل عملهم وصادق جهودهم فيما أدوا للإنسانية .

وانا لنرجو أن يكون هذا الماضي المجيد حافظاً للعروبة وللشرق حتى تنهض شعوبه وتسير في ركب الحياة متعاونة متآزرة وتتخذ لمستقبلها دعائم من العقل الراجح والهمة الوثابة والخلق القويم .

عبد الحميد محمد

شوقى والعلم

المستأذ احمد محمد الحوفى

تمهيد ، شغف شوقى بالعلم ، دعواته اليه وتوضيحه لآثاره ، جرائر الجهل ، العلم فى المدرسة وبعدها ، حظ المرأة من العلم ، الغرض السامى من العلم ، نغره بماضى مصر العلمى ؛ جلال المعلم .

(١)

أبرز سمات العصر الحديث أنه عصر العلم والثقافة ، وكل ما تشهده من جديد فى العالم ، وما نعجب به من طريف فى هذه الحياة ، وما نستمتع به من خير أو نصطفى به أحيانا من شر إنما مرده الى العلم ، ومرجعه الى الثقافة .
والأمم تسمو بعلماؤها ، فتمجد فى عهود السلم ، وترهب فى أعاصير الحرب ، ويكاد الواقع يقرر أن الاستعمار فى الزمن الحديث إنما هو استعمار العلماء للجهال ، فحينما أنار العلم ، وشع فى النفوس كانت القوة والسلطان والمجد وحيثما أطبق الجهل بظلامه خوت النفوس من معانى العزة والكرامة والمجد ، فتسلط العالم على الجاهل ورغب القوى فى امتلاك الضعيف ، واستعمر القوى بعلمه الضعيف بجهله ، وإن كان عدد القالبين المستعمرين لا يبلغ عشر عدد الضعفاء المغلوبين .

ومأساة الشرق بالغرب تؤيد هذا ، فإن أوروبا لم تستعمر الشرق إلا فى عهود جهالتها ، الجاهلة التى جنت عليه الضعف والفقر والمرض ، وجرت ورامها الفرقة والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كشف الخيرات التى يطئونها بأقدامهم ، فتزاحم الغربيون لاستغلالنا وامتلاكها واحتكارها ، ومنوا على بعض المواطنين بأن يكونوا عمالا فيها ، وظل الشرق فى غفلته أو سكرته إلى أن بعث العلم من رقدته ، إذ علم أفراد منه فتصدروا صفوه ، ونفخوا من روحهم القوى

في روحه ، ونصبوا أمامه المثل العليا لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم ، فسرعان ما استفاد الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق كلها بتجاهد وتناضل .

وقد يمتري بعض الناس في أن العلم وسيلة القوة في الحروب ، كأنهم لا يعلمون أن الحروب تعتمد على الجيوش ، ولا بد لها من علوم متنوعة تتصل بطبيعة الأرض ومواقع البلدان ، وأحوال الجبال والسهول والوديان ، وطبيعة الجو ، وحساب الأبعاد ، وإصابة الأهداف ، واختراع الآوزار والآلات : من طائرات وغواصات وقنابل ومدمرات .

وإذا كانت الحرب الأخيرة في جملتها حرب آلات ومخترعات فإن هذه الآلات والمخترعات كانت وليدة العلم ، وثمره الجهاد الطويل للابتكار ، وكان في كل أمة آلاف من العلماء جيشهم في معاملكم ومصانعكم ليخترعوا .

وما القنبلة الذرية إلا ثمرة لبحوث متواصلة ، ولولا العلم ما كان تحطيم الذرة وإن كنا لانعني الإشارة بما نشأ عنه أو ينشأ من تهديد المسلح للاعزل ، وإنما نعني الإشارة بالآثار المحمودة النافعة الخيرة التي سيجنيها العالم من استخدام الذرة في الصناعة والطب وغيرهما من وسائل الرفاهة والكمال .

وإن العلم هو الباعث على وئبات الشعوب ، ونهضات الأمم ، وأيمانها بصلواتها القوة المادية وخدمتها كانت كالحصن شديد على دعائم من الرمال ، لا بقاء له ولا صولة ولا طاقة له بأول جولة .

(٢)

لهذا كله كان أمير الشعراء حريصاً على أن تتسلح مصر بالعلم ، في الحرب والسلام ، وكان كلنا بالدعوة إليه يرددها في كثير من قصائده ، حتى ليصح أنها عقيدة من عقائده .

وليس ذلك بهجيب منه بعد مذاق حلالة الثقافة شرقية وغربية ، قديمة وعصرية وعلم من تجارب الأيام ، وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش في عصر اسماعيل وما بعده ، عصر الافاقة واليقظة وإشراق العلوم بمصر .

ثم إنه رأى أوربا تتسابق فى ميادين المعرفة ، وتتنافس فى حلبة الاختراع ،
وتعتز بعلمائها وأدبائها كما تعتز بملكها وفتوحها ، فود لو تقتدى مصر بها ، ولا يبقى
جاهل تحت سماءها .

(٣)

يقرر أن العلم هو الوسيلة للفوز والغلب ، وحياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج
المملكة وحارسها وحاميها ، لأن العلماء بآرائهم واختراعاتهم يذودون عن الحمى ،
ويقون الوطن غير العدوان ، كما تحمى الاسود عرينها .
يقول فى مدحة من مدائحه للغفور له الخديو عباس :

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب ما بين آساد وأشبال

ويقول للغفور له الملك فؤاد فى حفلة افتتاح الجامعة المصرية :
وألقى فى أرض منف أس جامعة من نورها تهندى الدنيا بنبراس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا أسس
ويقول له أيضا :

إن شرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانين العلم والادبا
ويقول أيضا .

فلم تبرح القصر الا شفت جـدوب العقول ومحالها
لقد ركب الله فى راحتيك يمين الجدود وشمالها
تخط وتبنى صروح المسلو م وتفتح للشرق أقالها
ويقول له فى قصيدة الازهر .

والله ما تدرى لعل كفيفهم يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتره بنصف ملكك لم تجد غينا وجل المشتري والمشتري
ويقول فى قصيدة دمشق :

الملك حول لسان تحتسه أدب وتحت عقل على جنتيه عرفان
ولم ينس فى الاحتفال بينك مصر أن يقرن المال بالعلم فى الجلال والقدر ،

وانه دعامة من الدعائم التي يقوم عليها صرح الوطن ، وما قيمة المال بغير علم ؟
 ليس العلم هو الذي يثمر المال في وجوه نافعة ، ويذكر الوسائل للوصول اليه ؟
 هذه مصر قد احتكر الاجانب صناعاتها وتجارتها ، وزاحوا حتى في زراعتها منذ
 كانت تجهل كموزها ، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها ، وتسترد بعض مالها ، لأنها
 أحق بخيراتها .

يا طالباً لمعالي الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال
 بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبق ملك على جهل وأقلال

...

وانما تمسك الامم ملكها الوطيد بالعلم والعدل أولاً ، وكل ملك شيد بالقهر
 والغلب وحد السيف مع مجافاة العلم فيصيره الزوال ، لأن أسباب بنائه ، ومظان
 بقاءه ، هي أسباب فناءه .

استمعوا إلى شوقي في قصيدته ، الاندلس الجديدة ، مخاطب مدينة أدرنة من
 كبريات العواصم العثمانية في مقدونية ، ويتحسر على سقوطها في يد البلغار سنة ١٩١٢
 ثم يعزو تقوض ملك الترك إلى أن دولتهم قامت على البطش والجبروت ، لا على
 الثقافة والعلوم

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوام
 أبقى الممالك ما المعارف أسسه والعدل فيه حائظ ودعام
 فاذا جرى رشداً وعينا أمركم فامشوا بنور العلم فهو زمام

وإذا كان الملك عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتحول جثثاً هامدة ، فإن
 الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الانسانية ، وخصائصها الالهية ؛ فيثول بالجهل
 إلى فصائل البهم ، إذ ليس لهم من معنى الانسانية إلا أسمها
 الجهل لا تحيا عليه أمة كيف الحياة على يدى عزريلا

...

إنني نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل دام للشعوب ميئداً

الجمـل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فأت ولیدا

...

أيقنت أن الجهل علة كل مجتمع سقيم
وقد كرر شوقى هذا المعنى فى تحيته للترك ، وكأنه كان يستشف من وراء الغيب
أن الكلمة الأخيرة فى الحروب ستكون للقلم والعلم ، لأن المخترعات الفتاكة فى
غنى عن العدد وعن الشجاعة :

هذا الزمان تنادىكم حواده يادولة السيف كوزى دولة القلم
فالسيف يهدم جراً ما بنى سحرا وكل بنيان علم غير منهدم
قد مات فى السلم من لارأى بعصمه وسوت الحرب بين البهم والبهم
وأصبح العلم ركن الاخذين به من لا يقيم ركنه العرفان لم يقيم

...

وكما صاغ شوقى قصيدة فى موضوع ذى صلة بالعلم أو بالفن — على أنه الجانب
التطبيقي من العلم — سكب فى قلوب الشباب من روحه الوثاب
ها هو فى قصيدة عن الطيران عند قدوم «فدرين» و «بونيه» طائرين من باريس
إلى مصر سنة ١٩١٤ يلتفت إلى الشباب المصرى يوقظه من غفلته ، ويبعث فيه
الثقة والغيرة والطيران بمصر إلى جو المعالى على أجنحة من العلم :

إنما مصر اليـسـكم وبـيـكم وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم فى يمين الله خير الامناء
لأنقولوا : حطنا الدهر فـا هو إلا من خيال الشعراء
هل علمت أمة فى جهامها ظهرت فى المجد حسناء الرءاء
فخذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واطلبوا المجد على الارض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء
وفى تحية أخرى لطيارين فرنسيين مجد العلم المخترع ، العلم الذى لو تقدم به
الزمن واقرن بالتحدى من فرد لعصره لعد معجزة ، ثم أثنى على الشجعان من العلماء

الذين أهلكتهم جرأتهم مثل إيكار ، و (عباس بن فرناس) وحسبهم من حسن
الأحدوثة أنهم خلفاء الرسل في المعرفة والاستشهاد ؛ ونهر الفرضه فصرخ في أذن
الشرق الغافل ليستفيق ، فالحياة زحام وصراع يهلك فيها من استنام ، والحياة جد
وكفاح لا يغني عنهما شيئا ماض مجيد كان للأباء والأجداد :

قم سليمان بساط الريح قاما	ملك القوم من الجوارزما
حين ضاق البر والبحر بهم	أسرجو الريح وساموها اللجأما
صارما كان لكم معجزة	آية للعلم آتاهما الأناما
قدرة كنت بها منفردا	أصبحت حصة من جد اعتراما
طلبة قد رامها آباؤنا	وابتغاها من رأى الدهر غلاما
أسقطت إيكار في تجربة ..	وابن فرناس فما استطاع قياما
في سبيل المجد أودى نفر	شهداء العلم أعلامهم مقباما
خلفاء الرسل في الأرض همو	يبعث الله بهم عاما فعاما
أيها الشرق انتبه من غفلة	مات من في طرقات السيل ناما
لاتقولن : عظمى أنا	في زمان كان للناس عصاما
شاعت العلياء فيه خلفا	ليس يألوها طلابا واغتناما
كل حين منهمو نابغة	يفضل البدر بها وتساما

...

وفي قصيدته التي كرم بها المغفور له أحمد حسنين باشا الرحالة يقول للشباب :

قل للشباب بمصر عصركم بطل	بكل غاية إقدام له ولع
ما الجاه والمال في الدنيا وإن حسنا	إلا عراى حظ ثم ترتجع
عليكمو بخيال المجد فأتلفوا	حياه ، وعلى تمثاله اجتمعوا
وإن نبغتم فني علم وفي أدب	وفي صناعات عصرنا صنع
وكل بنيان قوم لا يقوم على	دعائم العصر من ركنيه منصدع
شريف مكة حر في ممالكه	فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا ؟

...

والفنون الجميلة في رأى شوقي نفحات من الله تعالى جعل بها الحياة وعطرها ،
وهذب بها النفوس ورقق الطباع ، وأرجع الى الناس نشاطهم إذا ما فتروا ، وأملهم
إذا ما يشوا ، والفن الجميل زينة الممالك وحلاها :
يقول في رثاء سيد درويش :

لاترق دمعا على الفن فلن يعدم الفن الرعاة الامناء
هو طير الله في ربوته .. يبعث الماء اليه والغذاء
روح الله على الدنيا به فهي مثل الدار والفن الغناء
تكتسى منه ومن آذاره نفحة الطيب واشراق البهاء
وإذا ما حرمت رفته فشت القسوة فيها والجفاف
وإذا ما سئمت أو سقمت طاف كالشمس عليها والهواء
وإذا الفن على الملك مشى ظهر الحسن عليه والرواء

...

والشعراء في رأيه هم الناس ، أى الكلمة في الحيوية وفيض الشعور والاحساس
جاذبتني ثوبى العصى وقالت أنتم الناس أيها الشعراء
ولما كادت باريث تسقط في الحرب العالمية الأولى تفجع الشاعر لسقوطها
المتوقع لأنه يعرف لها فضلها على الأدب والفن والعلم ، ولأنها مقصد الطلاب من
الشرق والغرب :

زعموك دار خلاعة ومجساة ودعارة يا إلفك مازعموك
إن كنت للشهوات ربا فالعلا شهواتن مرويات فيك
تلوين أعلام البيان كأنهم أصحاب تيجان طوك أريك
فاضت على الأجيال حكمة شعرهم وتفجرت كالكوثر المعروك
والعلم في شرق البسلاد وغربها حاج طالبه سوى ناديك

والاسلام يدعو إلى العلم ويكرر الدعوة ، إذ قام الاسلام على السمو بالروح
وتطهير القلب وتربية العقل بالتمكيز في خلق السموات والارض ، وأقام الاسلام

أسسه على العقل والتفكير ، فرفع من قواعد العلم وحببه إلى النفوس ، وحسب العلماء
نصارا أن الله تعالى يقول : يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات ،
ويقول «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، ويقول
سبحانه : .» وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، : ويقول النبي
صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء ، ويقول : «أفضل الناس المؤمن العالم
الذي إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه ، .
لذلك ذكر شوقي من مآثر الرسول على العالم أنه بعث بدين يربي العقول
ويرفع من أقدار العلماء .

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له	وأنت أحييت أجيالا من الرمم
والجهل موت فإن أوتيت معجزة	فابعث من الجهل أوفابعث من الرجم
خططت للدين والدنيا علومهما	ياقارىء اللوح بل بالامس القلم
أحطت بينهما بالسرى وانكشفت	لك الخزان من علم ومن حكم
لما اعتلت دولة الاسلام واتسمت	مشت بمالكه في نورها التمم
وعلمت أمة بالفقر نازلة	رعى القياصر بعد الشاء والغنم
كم شيد المسلمون العاملون بها	في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتدين ما عزموا	من الامور وما شدوا من الحزم
ويجلسون إلى علم ومعرفة	فلا يدانون في عقل ولا فهم

ويقول :

ظلموا شريعتك التي تلتساها مالم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحصاره في سناها واهتدي في الدين والدنيا بها السعداء

(٤)

ويمد شوقي بصيرته إلى بواعث الجرائم فيجدها ناجمة من ضيق العقل واضطراب
الرأى والجهل بمصاير الأمور ومضادها .

ففي تهته الزعيم الخالد سعد زغلول بالنجاة من إهلاق الرصاص عليه وهو

يتأهب للسفر إلى إنجلترا للمفاوضة — عاب على الشباب أنه منصرف عن واجبه
الاول ليلهو بالسلاح، وأنه طائش لا يميز، وأن اغتيال الزعماء ليس بوسيلة
للتحرر، وما وسيلة التحرر إلا الجيش اللهم والعلم الهادى والخلق المسك
بالزمام :

أرى مصر يلهو بحدد السلا ح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير بحال العقول ل يحيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلا د ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنفضى دولة وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا د وبالعلم تشد أركانها
فأين النبوغ وأين العلو م وأين الفنون واتقانها
وأين من الخلق حظ البلا د إذا قتل الشيب شبانها

• • •

والجهل بعمى المنتخبين عن اختيار الكفاء الصالح للنيابة، لأنهم يتخذعون
بالوعود الممسولة، والدعايات الجوف، والزلفى الخادعة

تلك الكفوف وحشوها أمية من عهد خوفو، لم تر القنديلا
يتلو الرجال عليهم شهواتهم فالتاجحون ألذم ترتيلا

• • •

فعلى شيوخ الأمة ونوابها أن يتداركوا التعليم فى مصر فينشروه فى كل مكان
تظله سماؤها، ويعيش فيه أبنائها :

البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السميد ظليلا
نرجو إذا التعليم حرك شجوه ألا يكون على البلاد بخيلا

• • •

وعلى الشباب أن يسموا فى تموير الشعب ليتخير النواب العلماء الأكفاء
للدفاع عن حقوقه حتى لا يوصم الزأى العام بأنه كالفطير يساق ولا يقاد :
قل للشباب اليوم بورك غرسكم بذنت القطوف وذلت تذليل

ناشدتكم تلك الدماء زكية لا تبعثوا للبرلمان جهولا
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا لم تلق عقد كاله التمثيلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر منهم التفضيلا

...

دار النيابة هيئت درجاتها فليرق في الدرج الذوائب والذرى
الصارخون إذا أسمى إلى الحمى والزائرون إذا أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأولى يمشون في ذهب القيود تبخترا

(٥)

وشوقى لا يريد بالعلم الاقتصار على برامج المدارس لأنها ليست إلا مفاتيح
للاستبحار والتعمق ، وكـم من متعلم اقتصر على ما علمه فى المدارس ، وودع الكتاب
يوم غادر المدرسة فصار بعد حين فى عداد القارئىن ، لا فى عداد المثقفىن الذىن
يسايرون الحركة الفكرية ويغذون أرواحهم كما يغذون أجسامهم . وإنما يريد
شوقى بالعلم هذا النشاط الذهنى المتوقد ، وهذا النهم إلا الاستزادة من المعرفة
وليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه للوظيفة وحدها :

وأطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآداب آخر
كم غلام خامل فى درسه صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجد فيه أسمى خاملا ليس فى من غاب أوفى من حضر

...

وكـم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينبجب

ويقول فى أسواق الذهب تحت عنوان : « شهادة الدراسة وشهادة الحياة
ما بال الناشئ وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كحل بأحرفها عينيه ،
وظفرت بزخرفها كلنا يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقطوعة .
طوى الدفاتر وترك المحابر ، وذهب يخابل ويفاخر ، ويدعى علم الأوائل
والأواخر ، فمن ينبيه أن الشهادة طرف السبب وفتحة الطلب والجواز إلى أقطار

العلم والأدب ومن يقول له أرشده الله إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟ ،

(٦)

وشوقي حريص على تعليم الفتاة لأنها بعد حين الأم التي تلد الأطفال أو الأشبال وتربهم على أحسن مثال ، الأم التي تستحق كلمة نابليون أنها تهر المهدي يمينها وتحرك العالم بيسارها .

وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا ويقول مبيتنا حظ النساء من العلم في صدر الإسلام وعصور الازهار ومفاخرأ بما كان لهن من آثار .

هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة كنسائه المنفقات
رضى التجارة والسياسة والشئون الأخريات
ولقد علمت بناته لجح العلوم الزاخرات
كانت سكة تملأ الدنيا ونهراً بالرواة
روت الحديث وفسرت آي الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تطلق عن مكان المسلمات
بغداد دار العلماء ومثل المتأربات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابتات
ورياض أندلس نبت الهائفات الشاعرات

(٧)

ولا بد أن يكون الغرض من العلم رياء للنفوس العطاش الى الخير والحق والجمال ، لأن العلم من نور الله ، وهبة من عطاياه ، ولو صح أن الله تعالى يرى لسكان العالم هو المصباح الذي يراه به العلماء ، فكيف يسوغ أن يستخدم العلم في الشرور وفيما يفضب الله ؟ إن الأبطال الخليقين بألقاب البطولة هم العلماء ، لأنهم لا يجارون إخوانهم من الناس بالسيف والرمح ليقوضوا الحضارة ويخربوا

المدنية، وإنما يحاربون أمراض الانسانية وأدواها لتصح وتسلم وتكمل، وهذا هو الجهاد، وتلك هي البطولة:

لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم جل الله شأننا
يا طرازا يبعث الله به في نواحي ملكه أنا فأنا
من رجال خلقوا ألوية ونجوما وغياثا ورعانا
قادة الناس وإن لم يقربوا طبعات الهند والسمر اللدانا
وهم الأبطال كانت حروبهم منذ شنوها على الجهل عوانا

...

أما العلم الذي يفتن في ابتكار معاول التدمير والتخريب والازهاق والاحراق
وتسلط الباطل على الحق، والشر على الخير فالجهل خير منه والانسانية منه براء.
يقول شوقي بعد وصف الغواصة:

فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحواها
واف على العلم الذي تدعونه إذا كان في علم النفوس رداها
ويقول في رثاء مصطفى فهمي باشا معرجا على الحرب الكبرى سنة ١٩١٤:
يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على المعتللاء

(٨)

ويفخر بسبق مصر في مجالى العلم، وتنوقها على العالم القديم، ويكرر الفخر
بفضلها وأستاذيتها.

ففي قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ مرجليوث يفخر بأن
النيل مهد الحضارة، في واديه نبئت، وعلى عبريه ترعرعت، وضاع عبيرها فنيه
الأمم. وهذه الآثار الخالدات وصحائف البردى العتيقات نواطق وشواهد، وإلى
مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخاق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلم منك الحفى المشفق
ملأت وبارك حكمة مأثورها في الصخر والبردى الكريم منبق

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لمن مغرب ومشرق
وكان نهزأ للفرص بنوه فيهن بمجد مصر وفضلها، يريد أن يثبت في الشباب
النخوة، ويحيي لهم مثل البطولة ومعالم السبق. ويستحثهم إلى إعادة ما مضى، ويريد
أيضا أن يفاخر الأمم بهذا المجد ليعلى شأن مصر الموقفة في الجغرافيا الفلسفية
والإقليمية، ونزه برحلات المصريين وجوبهم البحار، في عصر لا كهرباء فيها
ولا بخار :

نزل أول دار في الثرى رفعت للشمس ملكا وللأقمار سلطانا
تفتت قبل خلق الفن وانفجرت علما على العصر الخالي وعرفانا
أبوة لو سكتنا عن مفاخرهم تواضعا نطق صخرا وصوانا
لم يسلك الأرض قوم قبلهم سبيلا ولا الزواجر أباجا وشطانا
تقدم الناس منهم محسنون مضوا للموت تحت لواء العلم شجعانا
جاءوا العباب على عود وسارية وأوغلوا في الفلاك لا مدوحدانا
أزمان لا البر بالوابور منتها ولا البخار لبنت الماء ربانا
وجيل منه أن يعود إلى المؤتمر فيأمره أن يقف وقوف العالم ليتأجى العلم
مهده . ويذكر عهده ، أزمان شب وترعرع في رعاية السكمان والنبيين .

ياموكب العلم قف في أرض (منف) به يناج مهدا ويذكر للصبا شاننا
بكى تمانه طفلا بها وبكى ملاعبا من ربا الوادى وأحضاننا
أرض ترعرع لم يصحب بساحتها إلا نبيين قد طسبوا وكهاننا

(٩)

وبعد ، فقد مجد شوقى العلم أى تمجيد ، فما قدر المعلم في نظره ؟ إنه لقد عظيم
وبحسبه أنه يكاد يكون رسولا ، وأن الله تعالى هو المعلم الأول ، علم بالقلم علم
الإنسان ما لم يعلم ، وأنه تعالى ابتعث الأنبياء معلمين :

وإنك لا تجد في الأمة أعظم منه أثرا ، ولا أجل خطرا . لأنه يبنى نفوسا
وعقولا ، وأن المعلمين هم الذين يحملون العبء ثقيلًا ، وهم هداة الأمم إلى الخير
والحق والجمال ، وقائدها إلى العزة والكرامة . ولذا قال بسمرك بعد حرب السبعين

« إنما غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة ، قال شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعدت أشرف أو أنجل من الذي يبني وينشيء أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الانجيلا
وخرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا
أعلى الوادى وساسة نشنه والطابعين شيا به المأمولا
والحاملين إذا دعوا ليعلموا عبء الأمانة فادحا مسئولا
إني لأعذرکم واحسب عبأ کم من بين أعباء الرجال ثقيلا

أحمد محمد الحوفي

المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية

أسماء بنت أبي بكر^(١)

المؤلف: سنان محمد بيبي الفار

سيداتي - سادتي

أقرأ عليكم الليلة صفحة من صفحات المجد الباقية سجلتها بأعمالها العظيمة أسماء ،
وأسماء بنت أبي بكر وأبو بكر قرشي من سادات بني تميم مصاييح الظلام أولته
قبيلته زعامتها حين استند ساعده ، لما توسمت فيه من خلال الخير فقد كان رقيق الطبع
رزيناً لا يعلبه الهوى حسن الحديث حلو المعاشرة . قال ابن هشام : كان أبو بكر
رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قریش لقریش وأعلم قریش بها وبما كان فيها من خير
وشر وكان رجلاً تاجراً ذا خلق معروف وكان رجال قومه يألقونه لغير واحد من
الأمم ، لعله وتجارته وحسن بجالسته .

أما أمها فقتيلة بنت عبد العزى من بني عامر . والتاريخ لم يحدثنا عما يكشف
عن صورة واضحة كهذه الأم المنجبة . ولكن حسبما أن يختارها أبو بكر زوجها له
فالرجل الذي عرفه التاريخ بصفات العظمة والخصافة . لا يختار زوجه بهواه بل
بعقله ورويته . فقتيلة بما لاشك فيه زوج صالحة ، لأن أبا بكر - العالم النسابة
يحيد الاختيار - وقتيلة أم صالحة أيضاً لهذا الاختيار ولما أنجبت من ولد ولئن لم
يكن لها من الولد غير أسماء إنها بهذه النجيبة أم صالحة وجد صالحة فأسماء إذا غراس
طيب في تربة طيبة - وأسماء شجرة مباركة تعهد تهايد صناع قد استكملت ما يحمل
أشجارها تؤتي ثمارها ناضجة شبيهة بعد حين - وأسماء إذا قد تخرجت في مرساة
الشرف والخصافة والعلم ولقنت من أبيها ومن كان يجالس أباهما ما يثقف العقل
ويوسع الأفق ويهذب النفس ويبصر الطفل بديناه .

تخرجت أسماء في مدرسة زعيم قومه ومن كان فيصلا في أمورهم يقول فيصدق وإن قال غيره بما يقوله كان غيره موضع الريبة والتكذيب .

وإذا كان الطفل صورة بيته ، أبيه وأمه فأسماء صورة صادقة واضحة لهذا البيت الغني بالأدب والعلم والذي هو أحد البيوت العشرة التي انتهى إليها الشرف في قریش الجاهلية والذي بقي شرفه موصولا بأبي بكر في الاسلام .

ومن الحق أن نقول : بعد أن درسنا سيرة أبي بكر في بيته ، كما قال الأستاذ العقاد : إن النشأة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في نشأة بئتين عائشة وأسماء . وعائشة رضى الله عنها ليست من موضوع حديثنا .

أما أسماء ذات النظاфин فما حمد الناس فضيلة لامرأة بذتاً وزوجاً وأما إلا كانت أسماء أجل نموذج لهذه الفضيلة ، وأسمى صورة من صورها .

أسلمت أسماء مع أبيها ، فهي من الأوليات السابقات — وكتبت أسماء لنفسها في هجرة الرسول وصاحبه إلى المدينة صحيفة شرف مخلدة تقرأ مقرونة بالتمجيد والاعجاب .

خاطرت بنفسها لإخفاء هجرة الصاحبين على المتربصين والمستشرفين فكانت في ذلك مستودع سر هائل حملته أمينة عليه ومن حولها شياطين قریش يلحون في تعرف أخبار محمد ويبدلون في ذلك أموالهم ونفوسهم — وأسماء موطن من مواطن هذا التقصى وهدف من أهداف ذلك البحث لأنها ابنة أبي بكر صديق محمد الوفي وصاحبه الأمين .

دلت أسماء بكتان السر والاحتفاظ به موفورا على أنها ممن يقدرون الأسرار ويحتفظون بالامانات وإن كانوا فتيانا قد كثرت من حولهم المحاولات لاستخلاص ما تحمل قلوبهم من أسرار عظام . كانت أسماء تسمى الصاحبين وهما في النار يستعدان للهجرة ، كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون سمعته أو رأته من أحاديث القوم وأخبارهم .

ولما كانت ليلة السفر لم تجد أسماء لسفره الطعام وقربة الماء ما تشدان به الى الراحلة غير نطاقها فخرجت عنه وجعلته شقين شدت بأحدهما السفارة وبالأخرى

القرية فسميت لذلك ذات النطاقين ولئن سلمت أسماء من الليل وتخافه والطريق وعثراته إنها لم تسلم من أذى قومها فاقدها أحاط بدارها ذات صباح رجال من قريش ليتعرفوا أمر أبيها فلما تجاهلت خبره أمعنوا في أذاها حتى لطمها أبو جهل لطمعة أطارت قرطها فما استكانت وما ضعفت بل ردت عن يمتها وإيمانها القوم خاسرين ذلك شأن أسماء الفتاة .

أما أسماء الزوج فقد كانت من المثل العليا للزوج المخلصة تشارك زوجها نعماء الحياة وبؤسها وهي تؤمن أن ذلك واجبها .

تزوجت الزبير بن العوام وكان فقيراً لا مورد له فلن تر عيباً - وهي - بنت أبي بكر السرى المثرى - أن تلطف فرسه وأن تطحن يديها النوى لبيعه وأن تستقي له الماء وتحرز الدلو وأن تحمل على رأسها علف دوابه مسافة ميلين في الذهاب ومثلها في الإياب وما زال هذا شأماً حتى علم أبوها مصادفة بما تحمل من جهد ومشقة في خدمة زوجها فأعانها بخادمة تحمل عنها بعض ما تحمل من أعباء فقال قامت بها زماناً وهي من علمنا من شرف المحمد وعزة البيت وثرائه ولكن العظيم لا يمين ولا يفخر بل قد يظن أن نفسه لم تقم بشيء إلى جانب ما يجب أن تقوم به .

هذا مثل من أمثلة أسماء الزوج .

أما أسماء الأم فقيها يقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام إن أسماء هذه رضى الله عنها أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشاً وأعظمهن تربية الولد على الشهامة وعزة النفس وحب أسماء أن يكون ابنها عبد الله المقدم الجرى العالم الفقيه اللسان الفصيح أول مولود في الاسلام بعد الهجرة والذي خلع قلوب الامويين واستخلص لنفسه من برائتهم ملك الحجاز والعراق فدان له القطران بالطاعة زماناً .

بعثت فيه أمه ما وهبت من صفات العظمة والسمو فكان مثبِتاً كريماً للفراس هذه النفس الابية الكريمة .

كانت نتيجة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين أن ضيقوا عليه الخناق في مكة فانفض عنه الأعوان والأُنصار وخذله الأهل والولد

وبذل له أعداؤه ما شاء من أمن وجاه وغنى إن رجع عن قصده وانقطع عن السير في طريقه فاستشار أمه في موقفه قال ! يا أماه لم يبق معي إلا السير ومن لادفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ! فما خلع الهول قلبها كما يخلع قلوب النساء ولا ضعفت ضعف الامهات حنوا على الابناء ولو فعلت لكان لها عذر وألف عذر ولكن أسماء قابلت الامر العظيم والروع المفجع بفؤاد غير متصدع وأقبلت على ابنها تقول ! يا ولدى إن كنت على حق تدعو اليه فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقيبك غلمان بنى أمية فيتلعبوا بك وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل إلا حرار ولا فعل من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ما يقع به يا ابن الزبير والله لضربة بسيف في عز أحب الى من ضربة بسوط في ذل هذه كلمات أم عجزوز جاوزت المائة قد تعاقبت عليها ملات الزمن وأحداث الايام فكيف من الاسى بصرها وضعف جسمها بيد أن نفسها وكرامتها وشجاعتها وعزيمتها مازالت فتية قوية فلم تلن في موطن تذوب فيه قلوب الاقيال . والصناديد ولا تحتمله الاقدرة ولو كانت قطعاً من حجر وحديد .

قالت لابنها ما قالت فكان آخر ما سمع وآخر ما وعى - وقع لبعبد الله بعد القتل ما كان يخشى من تمثيل وتضليل فجاءت أمه الحجاج تسأله أما أن لهذا الفارس أن يترجل ! فقال الطاغية في غطرسة وكبرياء المنافق - فأجابت مغضبة والله ما كان منافقا وقد كان صواما قواما فاهتاج الحجاج لردّها وقال اذهبي فانك عجزوز قد خرفت فقالت لا والله ما خرفت ولقد سمعت الرسول عليه السلام يقول ! يخرج من ثقيف كذاب ومييد أما الكذاب فرأيناه - وأما المييد فأنت هو . موقف نبيل جازت أسماء فيه الشتائم بشتمه ولم تبال سلطانة القاهرة ولا أن ترجع من لدنه غير مدركة غايته .

طوى الموت أسماء بعد ليال من ابنها في العام الثالث والسبعين من الهجرة فضم قبرها عظمة يذبحي أن تقام لذكرها مواسم المديح والثناء وأن يكون تاريخها بعد ما يسمر به الآباء والابناء .

محمد بيلي الفار
المفتش بالمعارف

في الأدب المغربي^(١)

للمؤلف: غفر الله محمد العمراني

خريج دار العلوم

تحت هذا العنوان أريد التحدث قليلا فيما يختص بأدب المغرب الأقصى وحياته منذ الفتح الأندلسي (سنة ١٧٢ هـ) إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري . وهو موضوع طويل وعريض . وأخشى أن يكون طوله وعرضه عاملا من العوامل التي ساعدت على التفسير الذي أعترف به من الآن . إن الوقت لا يسمح لي الآن بالدراسة التفصيلية لهذا الأدب ، كما أن مصادر البحث التي يمكن الرجوع إليها قليلة جداً . ولهذا سأقتصر على أن يكون هذا البحث مركزاً للغاية . وسأجتهد في إعطاء فكرة تثير السبيل أمام من يريد التوسع في هذا الأدب . وقد تناحى في الفرصة لدراسة ألوان الشعر والنثر حين يكون في الوقت متسع ، ويكون مجال البحث أيضاً واسعاً .

الغرض من هذا البحث

قد يتفق لبعض الناس هنا في مصر (كمية العلم في العصر الحاضر وملئقي الشرق والغرب) أن يسألني عن موقع البلاد المراكشية وهل المراد بها المغرب الأقصى؟ كما يتفق للبعض الآخر أن يستفسر عن موقع مدينة ما من هذه البلاد ، فأستف أشد

(١) محاضرة ألقيت في قاعة علي باشا مبارك بدار العلوم

الأسف لأن هذا البعض أو ذاك يجهل مثل هذه الحقائق ، ثم أدله على موقع هذه أو تلك لا كثرين قد أدبت بعض الواجب على في إيقافه على ما يريد .

قد طرق سمعى مثل هذا السؤال غير مرة فكنت أقول في نفسى : إذا كانت هذه هى الحال فى معرفة البلاد فكيف الحال فى معرفة أهلها وإنتاجها الادبى وغير الادبى ؟ أفلا يحق لى والمثل أن يتعرف إلى الناس مادام أنه قد عرفهم ؟ وأن يعرفهم ببلاده وأديها مادام هو بينادهم ؟ فليكن ذلك ! وليقدم كل واحد على التعريف بوطنه وأدبه . فان زمن الوسى أو المعجزات قد انقضى . إن الادب لا يعرف الحدود الجغرافية ولن يعرفها ، بل هو حق مشاع بين أفراد الجنس البشرى عامة ، وبين أفراد الامة الواحدة خاصة . إذن فما هذه الحدود والقيود التى تجعل أدب قطر عربى يحجم عن اقتحام قطر عربى آخر مثله ؟

أجل ، هى حدود الصدود والبعاد التى تجعلنا نتسامل : ألا من وصال ؟ وإذا كانت الحروب الحديثة يرجع اليها الفضل التام فى التعريف بالمناطق أو المدن التى تدور حولها رضى الحرب فاقى لأرى مانماً من أن أعلن الحرب على الادب المغربى ؟ لعل ذلك يثير من حب استطلاع القراء وأدباء الشرق ما يشئ غليلي وعليل كل من يشعر بأن أدب قومه أو بلده يجب أن يسرى على الاسن سريان تيار النور فى أسلاك السكهرباء .

يجب أن نقضى على ما هو كائن أو كان ، وأن نلتفت إلى ما ينبغي أن يكون ، يجب أن يكون الادب أداة اتصال وهمة وصل بين أمم الارض جميعاً ، وبالاحرى بين أقطار الامة الواحدة . وما ذلك إلا لان الادب هو السفير الحق بين هذه الامم بعضها مع بعض ، وبين أجزاء الامة الواحدة من باب أولى ان كان هناك أجزاء . ان رسالة الادب لن تنقضى ، وان جميله لن ينكر مهما كان نوع هذا الادب ولونه . ويزكرنى هذا بمعركة أدبائنا التى وقعت بعد انهيار فرنسا فى هذه الحرب الضروس والى كان أحد جانبيها فى مصلحة الامة المهزومة ييكها ويرقى حالها ، وذلك على الرغم من أنها طالما سامت أبناء أمته سوء العذاب .

إن العصر الحديث يمتاز بالسرعة فى كل شئ ، حتى إن العالم صار ازاء المواصلات

كانه كرة صغيرة أمام الشخص يضع أصبعه على المواطن المختلفة التي يريد بها فصلها بأقصى سرعة . أمع هذا نجد صعوبة في وصل المغرب بالشرق ؟ أم نجد صعوبة في توحيد المناهج الثقافية والادبية بين مختلف الاقطار العربية . ولعل المؤتمر المقبل للتعليم الاسلامي سيقضى على كل الحدود والقيود فيما بين الآداب العربية المختلفة ، ولعله كذلك سيعمل من مشكلات التوحيد الثقافي ما يحقق شيئا من الآمال في هذا السبيل .

الادب وأهميته

ان الادب — وهو فن من الفنون الجميلة — لابد أن يتغير تغير البيئة ، وأن يتأثر بكل ما لها من مؤثرات فيه ؟ ومن هنا كان لكل أمة أدبها الخاص .

ومن هنا أيضا كان الكاتب أو الشاعر صورة من بيئته الاجتماعية المحيطة به . وما الادب إلا لحن جميل تردده السن الامة شرقا وغربا بعد أن تفتن فيه قرائح الابداء بقدر ما تسمح لها به بيئتها وظروفها الاجتماعية ، وبقدر ما تدركه وتمسه من ألوان الجمال الفني ، ثم بقدر ما يعبر عن عواطفها ومشاعرها المستقلة — نوعاً ما — عن عواطف و مشاعر أقرانها في أي نحو من أنحاء العالم .

فأهمية الادب تبدو في تعبيره الصادق عن حياة الامة وروحها . والحياة بأنواعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد أن تترامى على مرآة صافية صقيلة هي الحياة الادبية . وإذا ما أردنا أن ندرس حياة أمة من الامم فلا بد من الرجوع الى اتاجها الفني ، والادب في الطليعة من هذا التاج . ان ارتباط التاريخ بالادب شديد ، ومن ينكر أن التاريخ العربي — مثلاً — مدين بالشئ الكثير للادب في كشفه عن الحياة الجاهلية وجلاء غامضها ؟

ويقال هذا في حياة الامة ذات الادب اللفظي من ألوان الشعر والنثر ، أما الامة ذات الادب الرمزي كأنواع التصوير والنحت فلا تخلو من أن يكون أدبها مصحوباً بنقوش تبرز عنه وتحدد لنا الاشياء الادبية المطلوبة . على أن الامة قد تجمع بين الادبين فيسير اللفظي والرمزي جنباً الى جنب كلاهما يكمل صاحبه فيعبر عما نحن

في حاجة الى دراسته وكشف غموضه . ولا يخفى أن للادب في كل حال من هذه الاحوال الثلاث مقامه الذي يختلف قوة وضعفاً باعتبارين مختلفين .
سقنا كل هذا لتخلص الى نتيجة واحدة هي أن الادب بنوعيه مصدر مهم في حياة الامة وتاريخها ، بل في أية ناحية من نواحي هذه الحياة .

الصلة بين الآداب عامة

كلنا يعرف أن لكل أمة أدبها الخاص وهذا مما لا جدال فيه . وكلنا يعرف أن الامة العربية بمالك وأقطاراً ، فلا عجب إذن أن يكون للادب العربي بمالك وأقطار أيضاً ، والا فما كان للاندلس أدب ولا المغرب والشام وبلاد العرب مثلاً — آداب أخرى ، وإلا فافكر كذلك أدباء مصر الآن في أن يكونوا لها أدباً أو هو كائن بالفعل ولكنهم في حاجة الى أن يجمعوا شمله ويلموا شعثه حتى يصير كائناً حياً معترفاً به من لدن البيئات الادبية الاخرى .

انه لمن السخف جداً أن يقال : ان الادب الجاهلي نسخة من الادب اليوناني القديم أو ان الادب في قرطبة صورة مكررة لأدب بغداد .

وتد يقال : ان العواطف الانسانية وحدة لا تنفك أجزاؤها ، وسلسلة متصلة الحلقات لا يدرى أين طرفاها ، فلم لا يكون الادب باعتباره معبراً عن تلك العواطف وحدة كذلك ؟ والجواب على هذا هو أن طريقة الاداء والتعبير عما في النفس تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان ، وان كانت العواطف والمشاعر لا تختلف ذلك الاختلاف .

ان الطبيعة هي الام الروم ، مستعدة لامداد كل انسان بما يخصه ، ولكن الانسان هو الذي يختلف في كمية ما يأخذه وكيفيته ، وهذا هو مصدر التعدد والاختلاف بين انتاج الاشخاص بعضهم مع بعض أولاً ثم انتاج الشخص الواحد ثانياً .

وما الشأن في اختلاف الاداء وطرق التعبير عن العواطف الانسانية إلا كشأن الصور الزيتية المتعددة لمنظر ما ، فالمصدر واحد ولكن الاختلاف جاء من

نظرة كل فنان الى المنظر الذي أمامه ، فكانت النتيجة أن تختلف الاوضاع والالوان الزاهية لتبدو الصورة ملائمة للطبيعة حيناً ، وفاتكة ايها في حينها وجمالها حيناً آخر .

ومع هذا الاختلاف فإن الآداب عامة لا تعدم صلة قربى وتشابه بين بعضها والبعض الآخر . وهو تشابه محدود على كل حال ، وإن كان يطيب لبعض الناس أحياناً أن يسموه بالأخذ أو السرقة الادبية . والقول الفصل في هذا هو أن المعاني مشتركة والعواطف واحدة وأنها ملك مشاع بين جميع أفراد الجنس البشري ، فلكل واحد الحق في أن يتصرف كما يشاء وأن يعبر عما يحسه ويدركه كيفما يريد . والاتفاق في طريقة الاداء وأسلوبه قد يكون ناشئاً من أن الاديب اللاحق متأثر بالسابق أي أنه قرأ وحفظ له كثيراً ثم نسي ما حفظ أو قرأ . ولكن الخلاصة المهمومة ، الممثلة ، لانزال عالقة بذهنه يستطيع التعبير عنها متى أراد .

فعملية الهضم والتبيل ، تحيل المعاني أو الافكار المنسية جزواً من لحم الكاتب أو الشاعر ودمه ، وأظن أنه من الاجتهاد وعدم الانصاف بعد عملية التبيل هذه أن يقال : إن هذا المعنى لفلان وإن كان له فضل السبق والتقدم فيه .

على أن وجوه الشبه هذه أو ما يسمونه بالأخذ أو السرقة قد تكون بين أدبيين من أمتين مختلفتين لكل منهما لسان خاص ، وقد يكون أحدهما أو كلاهما غير عارف بلغة الآخر . يعلل هذا بأن الانسانية جمعاء مشتركة في معاني وأحاسيس يحسها كل من له عقل أو قلب ، ولا فرق في هذا بين زمان أو مكان أو لسان . فأدب اللغات المختلفة تتشابه كتشابه الآداب في اللغة الواحدة ، مثل الادب في هذا كتل الناس في صورهم وأجسامهم كلاهما يمشي على نوع من الوراثة تشابه فيه الفروع الاصول في قليل أو كثير ، وفي أزمان متلاحقة أو متباعدة . إن الانسانية ليست متشابهة في الاشكال والالوان فحسب ، ولكن في القرائح والمقولات أيضاً .

شخصية الادب المغربي

لئن كان المغرب الاقصى شخصية ثابتة واستقلال ذاتي في عاداته وتقاليده فلا يدهشنا أن يكون له أدب ذو شخصية ثابتة واستقلال ذاتي كذلك . ومادام الأدب صورة للمجتمع ولما في الحياة التي يحياها أهل ذلك المجتمع ؛ وما دامت هذه الحياة تختلف باختلاف المؤثرات فيها من عوامل البيئة والوراثة ، فانه من المحتمل جداً بل من المتعين أن يكون لكل مجتمع أدبه الذي يكون مستقلاً بقدر ما تسمح به طبيعة ذلك المجتمع التي تطبعه بطابع خاص ، وتصبغه بصبغة ملائمة لحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يغرب عن البال أن المغرب منذ وطئت ثراه قدما المولى ادريس بن عبد الله سنة ١٧٢ هـ ظل مستقلاً عن المشرق سياسياً حقبة طويلة من الزمن فنشأت به وازدهرت دول عظيمة الشأن في التاريخ السياسي للمغرب الاقصى فلا عجب إذن أن يستقل عنه أدبيا ، ولا عجب أيضاً أن يكون لفنون القول سياسة كما كانت لامور الدولة سياسة وللسياسة كلاً لا يخفى تأثيرها البالغ في احياء الادب وتوجيهه وصبغه بالصبغة التي تلائمها في كثير من الاحيان واذا عرفنا ذلك عرفنا (أن المبدأ الذي يقول : بأن الادب للأدب ، قلنا يتحقق لكل الناس وفي كل حين . وعلى كل حال فهو مبدأ ينبغي أن يعمل الناس على تحقيقه في أي وقت كان)

لقد اختلفت الأذواق ولا زالت تختلف في معرفة البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ومادامت هذه الأحوال تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار فلا شك أن بلاغة أهل المغرب — كما يقول ابن خلدون — غير بلاغة أهل المشرق وبلاغة الاندلس غير هاتين ، لأن عربية المغرب متأثرة بالبربرية (لغة السكان الاصليين) وعربية المشرق متأثرة أيضاً بالفارسية والتركية وعربية الاندلس متأثرة كذلك بلغة الفرنجة والجلالفة (الاسبان) . فمعرفة أية بلاغة من هذه لا تحصل إلا لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، إذ أن كل واحد مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلده ،

وهنا أرى نفسي مضطراً للرد على صاحبي كتاب : المطرب في أدب الاندلس والمغرب ، فقد تجنبا على الادب المغربي وحكما عليه حكماً لا يوافق حقائق الأمور .

إن هذا الحكم ناشئ من أنهما لم يحسنا الاطلاع على فوائدهما الادب والفنوس وراه لآلته ودرره . وهذا يحصل كثيرا من أدبائنا الذين ألفوا الحكم على الاشياء قبل معرفتها وتجاهلوا أن الحكم على الشيء فرع دراسته الدراسة العميقة ، وأن البحث العلمى الدقيق يجب أن يتحرى الحقائق وأن يضع الأمور في نصابها لأن ينظر بعين السخط فيجعل من القبة حبة ، أو بعين الرضا فيجعل من الحبة قبة كما يقولون .

كما أن حكمهما أيضا قد يكون ناشئا من قياسهما الخطي . قياس الشعر الجيد الرصين على ذلك الشعر العامى الذى قرأه فى مقدمة ابن خلدون وغيرهما ، الشعر الذى ينبغى أن نعدّه شاهدا لاعلى ضعف الملكة الشعرية هناك ، بل على أن هناك نوعا جديدا من الشعر العامى الاجتماعى نبت وترعرع فى أخصب واحد مع الشعر العربى النصيح . على أن هذا الشعر العامى - كالفصح - يختلف من مكان الى مكان ، فبلاغته لا يمكن أن تدرك إلا لمن خالط لغة المكان وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها كما تقدم . إذن لا يمكن أن نصغى أو نتقبل حكم صاحبينا فى هذه الناحية ، إلا اذا تقبلنا حكم أجنبي عن مصر (لا يحسن عاميتها) فى ديوان الاستاذ بيرم التونسي مثلا أو مجلة من مجلات الفكاهة المصرية .

ولعل هذا لم يخرج بنا عن الموضوع مادامنا بصدد الحكم على أن الآداب مستقلة بعضها عن بعض نوعا ما من الاستقلال ، وأن بلاغة هذه الآداب تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان

مميزات هذا الأدب

لا بد لي أن أعطى صورة صادقة عن هذا الادب المغربى - من أن أجل مميزات فى ميزتين اثنتين أستطيع الدعوى بأنها كافية فى اعطاء هذه الصورة واذ كان لكل دعوى دليل فدليلي الذى أقدمه بين يدي القارئ الكريم هو أن يصغى أو يتأمل ما يأتى : -

(١) السهولة : يمتاز الادب المغربى بأنه سهل فى لفظه ومعناه ، أسلوبه وخياله ، تعبيره وتفكيره ، ليست فيه تلك الصعوبة التى قد تضر بضروب الادب وألوانه أكثر مما تنفع .

إن للتفكير مجاله فى الحقيقة والخيال ، وللتعبير مجاله كذلك ؛ ومادامت الحقيقة

ثابتة واضحة ، ومادام الخيال توأما لها فالمنتظر أن الأدب سيكون على جانب عظيم من السهولة في التفكير الذي يخامر الهموس ، وفي التعبير عما يجول بالنفوس ، وما ذلك إلا لأن مصادر الوحي والالهام من طبيعة وبيئة وحياة سهلة كذلك وما يزيد الطبيعة وضوحا تميز الفصول السنوية بعضها عن بعض ، فكل أوانه وموسمه إلا أن الأدب له في كل موسم موسم فلكل شتاء الذي هو موسم المطر أوانه الذي يجتمع فيه الحبان في ظلال بنت العنب (الخمر) وزقزقة المصافير تلك هي الصورة السحرية التي يصورها لنا ابن الطيب العلى مؤلف الانيس المطرب :

أقول للمحبوب في روضة والطل يسعى والثرى يشرب
زوج لبنت المكرم ابن السما فالطير في مثله يخطب
والربيع أوانه الذي يقترن فيه ركوب الخيل بركوب الازهار على قصبان
الاشجار ، وتشدو فيه الطير فوق الغصون فتتهز هذه بدورها وكأنها ترقص على
تغريدها تلك هي الصورة الجميلة التي تخيلها القاضي ابن زنباع فأداها ببعض أبيات
من قصيدة يصف بها الربيع خير اداء :

أعريت خيلك صيفها وخريفها وشتاها ، ههنا أوان ركوبها
أو ماترى الازهار مامن زهرة الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفت على أفنانها تلقى فنون الشدو في أسلوبيها
تشدو وتمسز الغصون كأنما حركاتها رقص على تطريبها
إلى غير ذلك مما لا أريد الاطالة به في هذا الموطن .

فهذا الشعب الذي طبيعته في أساسها غير عربية ، والذي عريته ليست أصيلة فيه ، لا ينتظر منه التقعر في اللفظ والتمعق في المعنى ، ذلك التقعر والتمعق الذي قد يزرى بالآداب حين ارادة الحكم لها أو عليها وحين عقد الموازنة بين بعضها وبعض .

وانما المنتظر أن تكون لهذا الادب رقة كذلك التي تراها في الرياض والازهار والاطيار ، وسلاسة كسلاية المياه المنصبة خلال الجداول والانهار وجزالة كتلك التي تحكيها الجبال الراسيات ومثلها البحر في ديجانه وموجانه ... إلى غير ذلك

من فنون القول وصنوف المقول فيه مما يصور الطبيعة والبيئة والحياة ، ويعبر عنها
أصدق تعبير . وهذا غاية ما نرجوه من أدب شعب عرف طبيعته فاستطاع أن يعبر
عنها واستطاع أن يحسن ذلك التعبير .

(٢) الصديق : ويتجلى صدق هذا الادب في أنه يتحرى الحقيقة على الخيال ،
بل ربما كان خياله في الواقع حقيقة ، لأنه يسجل عليه ثوبا من الصديق يصير به كأنه
من الحقيقة في الصميم . وهل الخيال إلا صورة صادقة للحقيقة تنعكس على مرآة
العقل الصقيمة فلا نلبث أن ندرك الصلة بين الصورتين ، وأنها صلة قرينة وشيجة .
مثل الحقيقة والخيال في هذا كمثل من يقف أمام المرأة لا يلبث أن يوحد بين
صورتيه : الحقيقة والتي يراها أمامه ، ثم لا يلبث أن يدرك الفرق وكأنه لا فرق .

إن هذا الادب معبر عن البيئة التي نبت فيها لأنه يغنى ويشدو بطبيعة قد لا نحصل
عليها في أي بلد من البلاد . فهذا البلد الذي يحب الفروسية من قديم الزمن ، نجد
حبه لها لا يدانيه إلا حبه للأدب الذي يستطيع الأديب أن يجمع بينه وبين الفروسية
في حلبة واحدة ويقارن بين الاثنين فيعطينا صورة هي - بلا برهان - من صور
المغرب الأقصى .

يجب على الأديب قبل التعبير والتصوير أن يقف أمام المنظر ، بل يجب عليه
أن يطوف حوله وبين جنباته طور بلا حتى يعطينا صورة حقيقية كالتى رآها وانطبعت
بها نفسه . ولا جدال في أن تصوير من رأى وجرب غير تصوير من سمع وقلد ،
وأن تصوير ما انطبع في النفس وتأثرت به غير ذلك الذي يعتمد على غيره
فها هو ذا القماض عياض ، قد رأى منظرا طبيعيا يتمثل في خامات زرع بينها
شقائق نمان هبت عليها رياح ، فأخذ يصور ذلك بصورة يكفى أن يقال فيها : انه
الخيال الذي يتفق والحقيقة : -

أنظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيسسة خضراء مهزومة شقائق النمان فيها جراح

ويتجلى صدقه أيضا في وصف الطبيعة المغربية الخاصة ، ووصف حياة المغاربة
الممتازة عن غيرها . فهو مصور لها في سرائرها وخصرائها : ففي السراء يعبر بالتغريد

في جنات الارض ، وبالتحليق في أجواز السماء ، وفي الضراء يعبر بالنوح
والشجن باديا عليه الابتغاء والرجوع الى الله وهو اذا لم يجد وسيلة للتعبير في تلك
الايام السود عن تلك الحزن والدواهي ، فقد يكون وقوفه عن السير والتقدم ضربا
من هذا التعبير الصادق ، وهل الاضراب عن العمل في الوقت الحاضر ، إلا وسيلة
صادقة للتعبير عما يحول بالخواطر ؟

إن احكام التفكير واتقان التعبير ينتجان حسن الاداء ، وهو الادب الحي
الذي لا يموت

عصور ادبنا المغربي

لقد جرت عادة المؤرخين والادباء ، أن يقسموا العصور على حسب الانقلابات
السياسية والحركات الهائلة التي تمر بالشعب في حياته التي يحياها . وإذا كان المؤرخون
محققين في هذا التقسيم في معظم الأحيان ، فإن الادباء قد لا يكونون كذلك في بعض
الأحيان . فليس للأدب عمر خاص ينتهي بانتهاء أجله كالإنسان ، وليس له حياة
تابعة لغيره فيحيا بحياة الدلة ويموت بموتها . وإنما هو في طريقه يواصل السير
مادام لا تصدمه عقبات في تاريخ الدولة الجديدة .

وعلى هذا الأساس الذي لا يعتبر الانقلابات السياسية فروقا أساسية بين بعض
العهود وبعض ، سندمج عهد دولة بني أبي العافية ودولة مغراوة وبني يفرن في عهد
الإدارة الذي استغرق زمنا أطول مما استغرقته الدولتان اللتان تلتاه ، والذي كان
عرق الادب فيه ينبض بماء الحياة ، كما سندمج عهد المرابطين في عهد الموحدين ،
وعهد بني وطاس في عهد بني مرين^(١) . وهناك عصران مستقلان قائمان بذاتهما
هما : عصر السعديين وعصر العلويين . فتتكون عصور الادب على هذا خمسة ،
منفردة كل عصر منها بكلمة تبين حال الأدب فيه بوجه عام :

(١) عهد الإدارة : (١٧٢ - ٣١٣ هجرية) . آل أبي العافية : (٣١٣ - ٣١٢)
المغراوة وبني يفرن : (٣٦٢ - ٤٠٠) المرابطين : (٤٠٠ - ٥٦٤) الموحدون : (٥١٤ - ٣٦٢)
مرفيين : (٦١٠ - ٨٧٦) الوطاسيين : (٨٧٦ - ٩١٥) .

(١) عصر الإدارة بما فيه عهد الدولتين التاليتين (١٧٢ - ٤٠٠ هـ) :

إن المولى إدريس بن عبد الله هو أول من استقل بالمغرب، عن الخلافة العباسية بالشرق، فأسس هناك أول دولة عربية . وإن مالا فاه من ضروب التكريم والمؤازرة ، جملة يصلح من المغرب وأهله . وجعله يستولى على المغرب الاوسط من أول سنة ، مما قضى على هرون الرشيد بالخوف من بسط يد هذه الدولة الفتية على ما كان تحت ظل الخلافة العباسية ، فأنفذ له من قضى على حياته بالحيلة والسهم التافع . إن خبر هذه الدولة مسجل على صفحات التاريخ بماء الفخار ، فليرجع اليه من شاء التوسع ، وإنما نريد الوصول هنا الى القول بأن حركة الفتوح هذه التي قام بها إدريس وابنه الاصغر من بعده (١٨٨٦ - ٢١٣) ، لم تكن لتلفت الدولة عنها الى الناحية الادبية وإنما كان همها توطيد مركزها أولا وقبل كل شيء .

ثم إن حدوث الفتنة بين أبناء إدريس الاصغر ، وتقسيمهم المغرب إلى مناطق حكم بينهم حسب اقتراح جدتهم السيدة كتنزة ، كل هذا مهد السبيل إلى قيام دولة آل أبي العافية الجديدة على أنقاض الدولة الإدريسية ، بعد حروب استمرت بين الطرفين ، وظل في بعضها الحسن (٢١٠ - ٢١٣) (من أسباط المولى إدريس) يطعن فرسان هذه الدولة في المحاجم الواحد تلو الآخر حتى لقب و بالحجاج ، كما يقول الشاعر :

وسميت حجاجا ولست بحاجم ولكن لطنع في مكان المحاجم

وظل موسى ابن أبي العافية مؤسس الدولة الجديدة (٣١٣ - ٣٤١) يطاردهم الادارة حتى طردهم من فاس (عاصمتهم الرئيسية) فالتجأوا الى بني عمهم بالريف فيما يعرف بقلعة حجر النسر ، ولكن هذا الطاغية حاصرهم أيضا هناك وأراد استئصالهم لولا أن أكابر دولته لم يوافقوه على قطع دابر أهل البيت من المغرب فاستجبا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس مقر حكمه . ثم ما لبثت دولة رنانة من مغراوة وبني يفرن أن ظهرت في أفق المغرب حتى عجز هذا الاقوي بدخان الحروب والفتن الداخلية الطاحنة .

وما نريد في هذه العجالة احصاء الفتن والاضطرابات التي حصلت بين الدول

الثلاث المتعاقبة ، وانما يزيد اضافة أنه طوال وجود الدولة الفاطمية (التي ظهرت سنة ٢٩٧ هـ أواخر القرن الثاني الهجرى) باغريقية (تونس) والنزاع قائم بينها وبين الدولة الاموية بالاندلس على المغرب الاقصى .

هذا هو العصر الاول الزاهر لا بفنون الآداب ولكن بفنون الحرب والقتال فما عسى أن يكون مركز الادب فيه . بل ماذا هيئ نظر من أمة هذا شأنها في التقلب والانقسام على نفسها . وفي التشوق للحكم على أيد مختلفة ! لا ينتظر منها بالطبع أن تبرز في الاداب والعلوم والفنون بقدر ما برزت في فنون الطمان وعلومه وآدابه ان كانت للطمان آداب .

إن هذا العصر مبكر بالنسبة لاولئك البربر (السكان الاصليين) الذين لم يتغلغل فيهم الروح العربي ، ولا الثقافة العربية كل التغلغل . صحيح أنهم تقبلوا الاسلام بصدر رحب ، يوم أشربوا في قلوبهم بشاشته التي خالطت منهم اللحم والدم ، فكانوا أول سلاح لنشر دين التوحيد في ربوع الاندلس . ولكنهم سرعان ما رجعوا الى أنفسهم فظلوا يتقبون بين خفاياها كي يجدوا لها منفذا الى الحكم ومباشرة السلطة الزمنية ، ان لم يكن في ظل دولة حالية . ففي ظل دولة جديدة يسعون في انشائها ، مادام لهم الحق في هذا بصفتهم أعضاء في هذا المجتمع الاسلامي الجديد . ان هذه الحروب والفتن لا تشغل الادباء عن التفكير والانتاج فحسب ، ولكنها قد تقضى عليهم القضاء المبرم

وعامل آخر من العوامل التي ساعدت على تخود الادب في هذا البصر ، هو أن عدد العرب كان به قليلا نسبيا لا يكاد يؤثر في العقلية البربرية السائدة . إن البلاد كانت في حاجة ملحة الى رسل الثقافة العربية ينشرون لواءها فوق هذه الاراضي الممتدة في مدة أقل وبصفة أسرع . ولكن امداد هذه البلاد بالمهاجرين العرب ويرسل الثقافة العربية ، لم يكن متوافرا ، ذلك لان خط السير للهجرة كان متجها غالبا الى الاندلس المزدهرة ، ولان الانسجام التام لم يكن قد حصل بعد بين هذين القطرين الشقيقتين .

ويجب ألا ننسى ذلك الثغر الجميل (سبتة) الذي ظل يحمل مشعل الثقافة

العربية في حين كان المغرب جله في ظلام دامس .
ولم نقل كله لأننا استثنينا القاعدة الادريسية (فاس) فالراية الادبية فيها ظلت
تخفق في زميلتها (سبتة) .

إن موقع سبتة على البحر المتوسط (الرومي) وقربها من العدو الاندلسية جعلها
محطاً لرحال كثير من الأدباء والعلماء أولاً ، وسوقاً رائجة للادب والعلم ثانياً .
ولو لم تكن حركة هاتين المدينتين الادبية مقصورة عليهما بالذات نظرا للحروب
والفتن الداخلية ، لكانت هناك وجهة نظر أخرى في الحكم على أدب هذا العصر
وهو أنه لا يبرر الناظرين إن لم يكن يحزنهم ؛ ولكن الذي يخفف وقع هذا الحكم
على النفس هو أنه منصب على المجموع لا الجميع .

(ب) عصر الموحدين بما فيه عهد المرابطين (٤٠٠ — ٦١٠)

أما وقد حكمنا على العصر المتقدم بالانحطاط الذي فلا غرابة في أننا منفضطر
الى فترة انتقال بين عصر انحطاد وعصر الحركة ، ولا غرابة أيضا في أن تكون هذه
الفترة هي مدة حكم المرابطين .

وهي وإن كانت طويلة إلا أنها كافية في بعث الأمن والطمأنينة في أرجاء البلاد
وفي إيقاظ الروح الأدبي والعلمي فيها .

ولكن يرق أدب هذا العصر فإنه اتخذ سلما ومتكأ يصل به الى ما ينبغي من
درجات الكمال والرقى . هذا السلم أو المتكأ هو الأدب الاندلسي ؛ فلقد تأثر الأدب
في عهد المرابطين ، بالأدب الاندلسي تأثرا شديدا ، كما تأثر أدباء هذا العهد بأدباء
الاندلس أيضا . ذلك لأن الاتصال بين الطرفين كان قائما ، ولأن الحركة الادبية
بالاندلس كانت مزدهرة توثق أكلها كل حين .

إن الشعور بالنقص لهُو الشعور بالواجب فلا عجب أن يكون التقليد والمحاكاة
هي الخطوة الاولى في سبيل اداء هذا الواجب . وهي خطوة طبيعية يخطوها كل من
آمن بوجوب مسابقة الزمن وأهله ، إن لم يكن في مقدمة القافلة في وسطها على الأقل
وبما دعا الى اتباع هذه الخطوة خطة التأثر بالأدب الاندلسي — زيادة على
الاتصال المباشر — ما كان يغلب على الدولة المرابطية من صيتها الدينية . ونحن
نعلم أن نهضة عبدالله بن ياسين من رؤساء هذه الدولة كانت دقيقة محضنة أساسا

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في الله حق جهاده ، نعلم ذلك من نفس القسمة التي كان سببها مرابطة عبد الله مع أصحابه الثمانية في جزيرة يعبدون الله فيها بعد أن كاد يباس من اتباعه في غيرها فكانت هذه المرابطة خير دعاية للجب الناس واستمالتهم فكان النجاح في المهمة وكانت الدولة ولقد تعب الناس في محاولة معرفة السبب الذي من أجله دعوا بالملثمين أيضا إلى أن أتى الشاعر فعبّر عن الحقيقة الواقعة أو أنه هدى الناس إليها إذ قال :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا
وما دامت الدولة مصبرغة بالصيغة الدينية فلا غرابة في أن تصطبغ بها النهضة
أيضا ، ولا غرابة كذلك في أن تقرب الدولة العلماء والفقهاء على غير علم من الأدباء
والشعراء ، وذلك على الرغم مما جادت به قرائع هؤلاء من مدائح راحت ضحية
في سبيل العلم .

هذه الروح الدينية لم تكن متعمقة ذلك التعمق الذي تنشأ عنه الخلافات المذهبية
والآراء المتضاربة التي كانت سببا من الأسباب التي فرقّت شمل الوحدة الإسلامية
بالمشرق ، وإنما كانت يسيرة يسر الإسلام ومبادئه ، ومشبعة بروح السلف الصالح
وذلك قبل أن يتألق - في آخر هذه الدولة - نجم جديد كان فيما بعد مؤسس
دولة الموحدين ؛ ونعني به محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

ذلك النجم الذي كان شروقه بالمشرق وأبى غروبه بالمغرب قبل أن يؤدي
رسائله على الوجه الأكمل ، فلقد طاف بالبلاد الإسلامية الشرقية ولقي تقديرا
من رجالها أمثال أبي حامد الغزالي وقدم منها وزودا بمعارف جديدة ، وبطريقة
الاشعري في تفسير القرآن ، تلك الطريقة التي لم يرو فيها حرفا واحدا عن المفسرين
وإنما اعتمد على ما كان يختلج به صدره ، فلم يكن بالمغرب الاسلفيون يملكون
بالمشاهدات مرور الكرام ، إلى أن أتى (المهدي) فحلمهم على القول بالتأويل
والأخذ بمذاهب الاشعرية .

وكان المهدي - رغم بربريته التي كان يؤلف بها - فصيحاً لسنا يستميل
الجماعات بألفاظه البذيئة مما حدا أمير المسلمين علي بن يوسف بن باشتين ٥٠٠ ٥٣٧

أن يعقد مناظرة بينه وبين علماء حضرته، فكان يسكتهم جميعا ويخجلهم ولولا إعجاب الأمير به غاية الإعجاب لما سلم من أذاه ولا سيما أن وزيره (مالك بن وهيب) حرصه على قتله قائلاً: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه.

فأمثال هذه المناظرة ان كانت تدل على شيء فانما تدل على أن دولة المادب صارت في رهان واحد مع دولة الفقه والعلم وبينما نرى في عهد الدولة المرابطية من يتلبس بلباس الفقهاء كي يصل المناصب العالية ويتولى الوزارة كما حصل من مالك بن وهيب الآنف الذكر، نرى في عهد دولة الموحدين من ينهض الى الوزارة على أكتاف الدولة الادبية، وذلك كابي جعفر بن عطية المتوفى سنة ٥٥٢ هـ الذي كان يصاحب أميره عبد المؤمن بن علي في غدواته وروحاته، والذي اتفق مرة أن صاحبه الى بعض بساتين مراکش، وبينما هما في طريقهما اذا بوجه جارية يطل من شباك، وكأنه الشمس الضاحية فنظر اليها الأمير فأعجبه حسنها فقال ارجعالي: قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر: حوراء ترنو الى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن: كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال أبو جعفر: سيف المؤيد عبد المؤمن بين علي

هذا الأديب الذي قدم الأمير عليه بعد الإيقاع به بسبب ذنب لم يغفره له. فلقد جمع الشعراء وأراد أن يمتحنهم بهجوه فلم يشفوا غليله فقال كلمته الخالدة: ذهب ابن عطية وذهب الادب معه،

ولعل نظرة الدولة الموحدية الى الادب نظرة العطف والتشجيع مما ساعد كثيرا على ازدهار الادب في هذا العصر، إذ كان عبد المؤمن منحة من الزمن وجمع الى حسن سياسته حسن التصرف في الادب وفنونه. ولقد مدحه محمد بن أبي العباس التميمي بيت استعاده منه مرارا وأمره بأن يقتصر عليه قائلاً له: لقد قلت في هذا كل شيء. وأجازة عليه بألف دينار ولعل النفس تشوف الى هذا البيت:

ما هو عظميه بين البيض والاسمل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

ولقد أورد صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيمة أهل الاندلس له على

ظهر جبل طارق الذى سماه هو وجبل الفتح، ما أورد بعضه قال : وكان يوم عظيم
اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس ما لم
يجتمع للملك قبله . واستدعى الشعراء وكان على بابہ طائفة أكثرهم يجردون فكان
أول من أنشده أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد
قال فيها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا
وأنشده ابن الشريف المعروف بالطلاق المرواني :

ما للعدا جنة أوفى من الهرب

فقال عبد المؤمن : إلى أين ؟ إلى أين ؟ رافعا يها صوته فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله في الطلب ؟

وأي ن يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملا العبرين بالعرب
فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء .

وأنشد ابن سيد الاشيبلى الملقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصى مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل
انى استقر به ؟ انى استقر به ؟ انى رأى شخصه العالى فلم يزل
فقال له عبد المؤمن : لقد أثقلتنا يارجل ، فأمر به فأجلس .

إلى غير ذلك مما لا نزيد به استقصاء وإنما مجرد تمثيل لحسب . هذه نظرة هذا
الخليفة إلى الادب والآداب . أما نظره إلى العلم والعلماء ، فتجلى في أنه أمر في سنة
٥٥٠ هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة
واستنباط الأحكام منها ، ثم كتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس
والعدوة . إن النهضة التى حظي بها الفقه في الدولة المرابطية أنتجت كثرة المحصول
مما حدا بأمرنا أن يقوم بحركة التطهير هذه . ولا ريب في أنه لم يحمله على هذا
إلا حبه للبحث والاستطلاع من جديد ، ثم حبه لرقى العلم والآداب معاً .

لقد أصبح الأدب المغربي الآن قائما بنفسه بعد ما كان يعتمد على أخيه الاندلسي في تخطي العقبات التي كانت تعوق سيره وأطراده في التوابعين حين وآخر ولم تكن غضاضة على العقلية المغربية. في هذا، مادام أغلب الشعب كما تقدم من العنصر البربري، وصعب على هؤلاء أن يطفروا أو يصلوا القمة سرعاً في آداب هي في الأصل ليست آدابهم؛ وإنما التعلم بالتعليم.

ولقد استطاع الأدب المغربي أن ينهض من كبوته التي أصابته من جراء غلبة النهضة العلمية عليه أول الأمر، كما استطاع آخر الأمر أن يتسابق في مضمار واحد مع آداب عصره. فلم يعد يتأثر بأدب الاندلس إلا كتأثره بأدب غير الاندلس. بل الحقيقة أنه لم يبق مجال للتأثر الآن، لأنه خلفه مجال آخر جديدهو مجال المنافسة الادبية بين القطرين.

عصر المرينيين بما فيه عهد الوطاسيين (٦١٠ - ٩١٥)

إن ارتباط الأدب بالعلم ونهضتهما مما يجعلان الأدب في القمة، ويجعلان الانتاج الادبي في أعلى درجة من سلم الرقي الفكري فلا تخاف على مركز الأدب في هذا العصر المريني، بل لا نخشى شيئاً إذا قلنا أن سنة النشوء والارتقاء (سنة الله في أرضه) ظلت مطردة لم تقم في وجهها عقبات تعوقها عن السير والنمو الطبيعي.

ولقد كان التقدم شاملاً في جميع ميادين الادب والعلم، فحركة التطهير في الكتب الفرعية في العصر الموحدى لم تؤت أكلها في ذلك العصر وحده وفي دائرة العلم المحدودة فحسب، وإنما كانت لها اليد الطولى في سبيل رقى الأدب في هذا العصر التالي.

إن الوسط الادبي في هذا العصر كان على غاية من العلو اشترك في بنائه جميع الطبقات من السوقة إلى الملوك. ولقد أغرى هذا الوسط الفكري الراقى كثيراً من ذوى الحثيات وأرباب الشخصيات الادبية فجعلهم يؤمون حواضر المغرب ومدنه التي لها يد في تمكين المرش الادبي. وجهه - بل أمثال ابن الأحمر وابن الخطيب وابن خلدون يأوون الى كنف الدولة المرينية ويستظلون بظلالها.

إن هذه الدولة عربية الأصل تمت إلى قيس عيلان ، فلا تعجب إذا كانت خدمات المغرب خدمات جليلة في ظل لواء الاسلام وفي دائرة العروبة المجيدة . ولا تعجب أيضاً إذا رأينا الامتزاج والانسجام التام بين العرب والبربر وفناء الجميع في سبيل المصلحة العامة وفي خدمة الوطن الذي يحبه الجميع .

وان هذه النظرة العربية الاسلامية لتعيد إلى الأذهان ما كان من عز الاسلام ومجده الذي لا يفنى . وهذه النظرة يعبر عنها أحسن تعبير الأمير عبد الواحد المريني بقوله :

فرقت في الميدان كل ملك وجمعت بين جرأة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالم يكن كلاً يعبره العدا بسلوك

وهما هو ذا السلطان أبو عنان المريني (٧٤٩ - ٧٥٩) يعطينا صورة عن طريق غير مباشر لما يجب أن يكون عليه أمير المسلمين أو الرئيس احلاقاً :

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج
إن القوة الأدبية لتسير جنباً إلى جنب مع القوة السياسية في هذا العصر ، فكانت الدولة السياسية على أشد ما تكون قوة وصوله ، وكانت الدولة الأدبية تجاريها في هذا أيضاً مع العلم بأن صولة الأدب هي ازدهاره وعظمته . وإذا كان الملوك قد اشتركوا في الحركة الأدبية وفي أعلام بنيانها ، فلا ندهش إذا ما أنتج لنا الأمير أبو الحسن المريني مثل هذه الموشحة اللطيفة :

مطلع : في نعمة العود والسلافة والروض والنهر والتديم
أطال من لأمني خلفه فظل في نصحه ملهم
دور : دعني على منهج التصابي بما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المنى عتابي فلست أصغي إلى عتاب
لا ترج ردي إلى جواب والسكاس تفتر عن حجاب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه التقسيم
والروض أهدى لنا قطافة واختال في برده الرقيم ..

وتصل أياها إلى خمسة وعشرين بيتاً عدا المطلع (انظرها في فتح الطيب ص ٢٢١)

ج ١) وفي هذا العصر بدأ تكون الشعر العامي الذي ظن بعضهم أنه كل أدب المغرب أو أنه يعطى صورة حقيقية منه : وهي صورة مهمما اعتبرناها صادقة لا تتدل إلا على أن الشعب المغربي أراد أن يعبر عن حياته اليومية فراح ينشد الشعر بلغته العامية على متوال الشعر العربي الفصيح في أوزانه وبحوره وأغراضه .

إن هذا الشعر العامي كان يسير في ركاب واحد مع زميله الفصيح ، فلقد تعددت مناحيهما وأغراضهما حتى أنهما ليعطينا صورة حية للحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في ذلك العصر .

وكان من غرول هذا اللون من الأدب ابن شجاع وهو من أهل تازا ، على ابن المؤذن سلمان ، والكفيف وهو من زرهون .

وما قال ابن شجاع في قصيدة وهو يصف حالة اجتماعية خطيرة

المال زينة الدنيا وعز النفوس يهسى وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العليا
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم إذا افتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير يكاد يتفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجئ من هو في قومو كبير لمن لأصل عندو ولا لو خطر
ومن مقطوعة له يصف لنا الحب الخائن :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان • قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان وأصلوا من حينهم يقطفوا وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هو بت لو وشقت قلبي معو وصيرت من خدى لقدمو نعال

وأما الشاعر الكفيف فلقد أبدع في مذاهب هذا الفن ، ولقد وصف رحلة السلطان أبي الحسن وبني مدين إلى إفريقية (تونس) يذكر هزيمتهم بالقيروان ويعزيمهم بما وقع لصيرهم ، يقول في مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة في

الاشعار بالمقصد في مطلع الكلام ويسمى براعة الاستهلال :
 سيجان مالك خواطر الامرا ونواصبيها في كل حين وزمان
 إن طعنائه عطفهم لنا قسرا وان عصيانه عاقب بكل هوان
 وهي مقطوعة طويلة جداً تشبه أن تكون ملحمة ، وقد ذكر بعضها في (المقدمة).
 وكان هناك نوع من الشعر تشوبه روح الفكاهة ، مما يتفكك به الادباء في مجالسهم
 أو يداعب فيه الصديق صديقه . فها هو مالك بن المرحل يداعب شيخوخته بهذين
 البين :

يا أيها الشيخ الذي عمره قد زاد عشرا بعد سبعينا
 سكرت من أكواس خمر الصبا فخذك الدهر ثمانينا
 ولاني عبد الله المكودي وقد بعث له بعض أخوانه بشراب مذيقي أي بمزيج ماء :
 بعثت بخمر فيه ماء وإنما بعثت بماء فيه رائحة الخمر
 فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر
 إن شعراء هذا العصر وأدباءه الكثير يعجز المقام والوقت عن حصرهم ، ولكن
 لا بد لنا من أمثلة من الشعراء ونماذج من شعرهم كي ندعم بها القول فنقول : قد
 تقدم القول بأن العرش الادبي في هذا العصر اشترك في تملكته جميع الطبقات على
 السواء . وتقدم كذلك رأى الزجال ابن شجاع في الحب والهوى ولكننا نرى
 أن السلطان أبا العباس المريني يخالفه في الرأى بخالفة تامة ، وقد لا نستطيع لهذا
 تعليلا اللهم إلا إذا كان هوى السلطان سلطان الهوى :

أما الهوى يا صاحبي فألفته وعهدته من عهد أيام الصبا
 ورأيت قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلى ومذهبا
 ولست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازا مذهبا
 لكن رأيت له الفراق منفصا لامرجأ بفراقنا لامرجأ
 وبمخاصية ذكر الفراق نورد بيتين لابن هاني السبكي في النوى قال موزياً :
 ما للنوى مدت لفير ضرورة ولطالما عهدى بها مقصورة

إن الخيال وإن دعت ضرورة لم يرض ذلك فكيف دون ضرورة .
إن سبته بما أنتجته من خول الادب لتستحق أن تسمى « بمصنع الآداب » ، ولعل
الطبيعة قد أعدتها لتكون كذلك . وبكفها بخرأ أن تنجب أمثال مالك بن المرحل
الذى يقول فى وصفها :

أخطر على سبته وانظر الى جمالها تصبو إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقى فى البحر على بطنه
ذلك الناعر الذى قاسى من محبوبه ما جعله يفكر فى رفع الدعوى عليه أمام محاكم
الحب ، وماذا كانت تكون النتيجة لو وجدت هناك محاكم للحب حقيقة ؟ الحكم فى
هذا للقضاء ! وإن كان الظاهر أن حجج المدعى قوية :

شكيت لقاضى الحب ، قلت : أحبنى جفونى وقالوا أنت فى الحب مدعى
وعندى شهود بالصباية والاسى بزكون دعواى اذا جئت أدعى :
سهادى وشوقى واكتئابى ولوعتى ووجدى وسقى واصفرارى وأدمى
ومن عجب أنى أحسن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى
وتبكي دما عيني وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعي
ولولا ضياع شعر هذا الشاعر الذى اعترف ابن خلدون بشاعريته على تحفظه
المعهود فى إصدار أحكامه لعرفنا عنه الشيء الأكثر .

وأقول : إن المغاربة لازالوا مرضى بحب الكتب وملء الخزانات بالمطبوعات
والمخطوطات النادرة ، ولوساعدوا على نشرها لكان الادب المغربى - أولا وبالذات -
ملء الافواه والاسماع ، وإسكان للنظريات العلمية المغربية - ثانيا - كراسى فى
معاهد العلوم الحديثة على اختلافها .

وخلاصة القول أن الادب فى هذا العصر كان مرآة صافية لحياة الشعب ترتسم
عليها عواطفه وميوله أكثر منه فى أى وقت مضى . فللحقيقة دون الخيال والوضوح
دون التعمق المقام الاول ، كما أن للرقعة فى غير ضعف والجزالة فى غير عنف مثل
ذلك المقام أيضا .

وليت الامر يقتصر على هذا الحكم العادل فيحفظ الادب بمركزه ، ولكننا نرى عهد بنى وطاس الذى تلا هذا العهد المربى والذى أدجنناه فيه وكونا منهما عصرا واحدا ... نراه عهد فن وحروب لم يكد المغرب يدوق فيه طعم الراحة والطمأنينة ، ولم يستغرق هذا العهد لحسن الحظ زمنا طويلا ، فلم تلبث العناية الالهية أن أغاثت المغرب بالزعيم الذى أسس الدولة السعدية . فأعاد السلام والامن الى البلاد ، كما قضى على الفتن والحروب التى كادت تقضى على دولة الادب ،

(د) عصر السعديين (٩١٥ - ١٥٥٠)

ان ستة النشوء والارتقاء كانت تكون مطردة لولا ما يعوقها عن هذا الاطراء من حين لآخر . ولولا هذه العوائق لظل الادب مزدهرا سائرا فى طريقه لاشئ يعوقه .

لقد كانت الدولة الوطاسية - كما تقدم - أشغل من ذات النحيين مع أعدائها الداخلين والخارجيين ، فلا بد اذن من أن يشغل الادب والادباء شغل أيضا وسط هذه الزعازع الهوجاء ، والامواج المتلاطمة ، الى أن يبعث اللطف الا لاهى من يقود سفينة الادب الى شاطئ السلامة أولا ، ثم من يقوم بعمليات اسفاف الأدباء ثانيا حتى يفيقوا من غشيتهم فنظمين على السفينة وعلى سلامة الركاب .

لقد قدم بمقدم الدولة السعدية الامن والسلام يرفرفان باجنحتها على ربوع المغرب ، فعاد للادب تبعاً لذلك حيويته وقوته ، وعاد يخلق بجناحيه من جديد فى أجواز السماء

ولعل مما يصور لنا الحركة الادبية فى أجلى مظاهرها تلك الخصومة الادبية التى تقوم بين الادباء بين حين وآخر . والى تكون بين اثنين ثم تنتشب الى ثلاثة فينقسم الراى العام الادبى حسب هذا التشعب فيتصعب كل فريق الى رأيه ومن ورائه أعوانه وأنصاره . وعلى هذا الاساس قامت خصومة أدبية فى مسألة الهيلة (لا إله إلا الله) وهل الحق سبحانه يدخل فى المنفى بلا؟ وهل تنتفى بها ألوهية الصنم وغيره مما يعبد بغير حق ؟ وقد لا يسمع الوقت ولا المقام بتبيين وجهة نظر كل واحد من أركانها

الثلاثة : الامام الحروبي (٨٩٧ - ٩٥٩) واليسئني (٨٩٧ - ٩٥٩) والمهبطي توفي سنة ٩٦٣ ، وإنما يسمح الوقت والمقام بأن نقول : إنها كانت على غاية من العنف والحدة حتى أراد السلطان (الشيخ السعدي : ٩٤ - ٩٦٤) أن يتدخل فيعقد مجلسا للمناظرة بين الثلاثة ولكن المهبطي لم يرد الدخول فيها فلم يجد تدخل السلطان فيها شيئا . ولقد تعصب كل لرايه وألفت في المسألة رسائل ، وظلت موضع نزاع شديد بين الطلبة وعلماء الكلام حتى أتى العصر العلوي فتصدى لها أبو علي اليوسى وألف كتابا قيما اسمه : مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص ، ويظهر أن اليوسى كان رائده الاخلاص فكان النصر حليفه في حل الاشكال ومن كلامه في كتابه قوله : واذا قد تعرضنا لكلام هؤلاء الاثمة فلا بد أن نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه بما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه معطيا أن شاء الله كل ذي حق حقه ومعطيا أيضا الحق حقه فان لحوم العلماء مسمومة والصدع بالحق منه معلومة ... الخ

وقد يقال إن هذه المناظرة أقرب إلى التوحيد منها إلى الأدب . والجواب على هذا هو أن الأدب لا يعرف الحدود والقيود أو أن الأدب هو الاتساع في العلوم كما يقول ابن قتيبة .

إن عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ - ١٠١٢) (من ملوك هذه الدولة) كان عهداً ذهبياً بالنسبة الى دولة الأدب ، فلقد كان بلاطه طائفاً بالعلماء والادباء من كل صوب وحذب وعلى رأسهم المقرئ صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما . ولقد اتفق مرة أن ضم مجلسه ثلاثة أشخاص : مكى ، مدنى ، مقدسى ، فقام المكى وقال : يا أمير المؤمنين ! إن المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال قد تشد أهلها اليك الرحلة وأنشد : —

إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يخمد

فطية ومكة أهلها والمسجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : أنه لم يتفق هذا الملك قصدت إيمالاته . قال المقرئ (راوى الحكاية) :

فتبسم لذلك أيدته الله وأجزل لهم العطا ، دأبه بكل رافد عليه من أى بلد كان . لقد كثرت عدد الثوابغ فى هذا العصر فى ظل هذه الدولة الوريث ، وذلك بفضل تشجيع الدولة للأدب واقبال السلاطين أنفسهم على التأدب . فها هو ذا المنصور وما هو ذا غزله : —

حرام على طرف يراه منام وحل الجسم قد جفاه سقام
وكيف بقلب فى هواه مقلب وأنى له بين الضلوع مقام
فيا شادنا يرى الحشا أنت بالحشا أما لحل أنت فيه ذمام ؟

وإذا كان الأمر كذلك بأن كان المنصور سلطاناً : أحدهما زمنية والاخرى أدبية فلا غرو فى أن يشرك معه فى سلطته الزمنية زعيم الادب فى ذلك العصر ونعنى به الوزير عبد العزيز النشتالى (توفى سنة ١٠٣٢) ، ذلك الاديب الذى يقول عنه المنصور نفسه : أنا فمتخر به على ملوك الارض ، وبارى به لسان الدين بن الخطيب ومنزلة ابن الخطيب غير خافية على أحد فهو إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع كما يصفه ابن خلدون بالحرف الواحد . وأما منزلة النشتالى فاذا تركنا شهادة المنصور جانبا وأقبلنا على هذين البيتين فقط من شعره استخلصنا منهما حكما يتفق ومكانته العالية فى رقة الاحساس وجودة النسيب :

حين أزمعت عند خوف البعاد وعدتني من الفراق العوادي
قال صحتي وقد أطلت التفاني أى شيء تركت قلت فؤادي

ولقد كان من دواعي القول تلك المناسبات (من حفلات ومواسم وأعياد) التى كانت تقام فتكون غذاء صحيا لفنون النظم والنثر . ومن هذه الاعياد التى بدأت بالمغرب وتكررت ولا زالت الى الآن عيد المولد النبوى . ذلك العيد الذى كانت تتكرر به المباريات الشعرية بتكرر السنوات ، ومن هذه القصائد قصيدة لصاحبنا النشتالى وهى تربو على المائة بيت يقول فى مطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شانى وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى
إلى أن يتخلص من مدح النبى صلى الله عليه وسلم الى مدح المنصور ثم يختتمها بقوله :

وهاتيك أبكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان
أنتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسنا أن يقال شبيها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدن تحميمه بمالك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقادللك الأموال في ذى عبدان

ثم ها هي ذى صحة المنصور وقد انحرفت قليلا فتنحرف لذلك صحة العالم ولكن
رب العالم شاء أن يبيل عالمه من علته بمجرد إبلال المنصور من مرضه ، ذلك هو
ما يعبر عنه النابغة الموزلي :

تردى أذى من سقمك البر والبحر وضجت بشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى عليك مسهدا وأصيح مذعورا الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي أفاق بها من غمه البسود والحضر
ترادت لنا الدنيا بزيئة حسننها وعاد الى أبانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة يهنا ويدعو أن يطول لك العمر
الى أن يقول :

بقيت لهذا الدين تحمي ذماره ويحميك رب العرش ما بقى الدهر
هذه هي الناحية السياسية للمنصور نلتمسها في تضاعيف المكتب وقصائد
الشعراء وأما الناحية الادبية له فقد نلتمسها في اختراعه أشكالا من الخط على عدد
حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه ، فاذا سقط الكتاب أو
وقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه وهذا نموذج خطيب بما كان هو الاصل والحروف
الشفرة ، المستعملة الآن . ولقد كان المنصور يتقن الخط المشرقي بازاء اتقانه الخط
المغربى ، وحدث أن كتب بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتب سره أبى عبدالله
بن عيسى يستدعى منه كتابا فبعثه اليه بن عيسى ومعه هذان البيتان

شقتنى كئوس السرور دهاقا خطوط اتسنى في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحرا فيجاءت اليه من المشرق

وكاتبه هذا هو مؤلف الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور، قال المقرئ: وهذه التسمية وحدها مطربة.

وكذلك عرف المنصور الرسائل الادبية وقدرها حتى قدرها ليس فقط في حدود الدولة التي يرأسها وإنما تعدى ذلك فالتفت الى الاقطار الشقيقة الاخرى والى توثيق الصلات الادبية بين بعضها وبعض وبين أدباؤها الذين هم مصباح الهدى والوئام في كل العصور.

فلقد استجاز المنصور أدباء مصر الشقيقة في ذلك العهد فأجازه الامام محمد بن أبي الحسن البكري بفصول في الشهر يعجبني منها قوله في ختامها وقد أدرك غرض المنصور من توثيق العلاقات الادبية على الدوام. فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز لهذا العهد، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عن أهل الامر، وكذلك مجاز أهل العصر أجازة عام بهام، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام، فانه السبب في تحصيل ذلك المرام (وهي مؤرخة: ١٤ / ٤ / ٩٩٢ هـ)

وكذلك أجازة العلامة بدر الدين القراني صاحب ذيل الديباج وغيرهما من الادباء والعلماء الاجلاء.

وأن ازدهار هذا العصر كالذي قبله وبعده في مختلف فنون الادب والعلم لتجمل الباحث في حيرة وارتباك لانه لا يدري ما يأتي وما يدع. ويجب ألا ننسى عاملا مهما من عوامل ازدهار الادب في هذا العصر، هذا العامل هو الزاوية الدلائية التي أخذت بضيق الادب آخر هذا العصر، فلقد كانت حصنا حصينا للادب والعلم وأخذت على عاتقها أن تنشر العلم وتؤدي طلبته فتخرج على يديها عدد عظيم من الادباء والعلماء. ولكن هذه الزاوية كانت لها مطامع سياسية اثر انقراض الدولة السعودية فقامت بحروب مع مؤسس الدولة العلوية الشريفة فاضطرته الى تقسيم المغرب بين الزاوية والدولة، الى أن أتى المولى الرشيد العلوي (١٠٧٥ - ١٠٨٢) ففضى عليها القضاء المبرم كما يتأتى القول في العصر الثاني

ان هذه الزاوية لتفخر بأهلها كانت معقلا من المعامل الحبيبة للعلم والادب في عهد ما، وإنما لتفخر كذلك بانها ظلت تمد العصر العلوي بزعماء الحركة الادبية زمننا غير يسير، وذلك رغم انقراضها من هذا الوجود.

(٥) عصر العلويين (١٠٥٠ - ١٣٠٠) :

هذا هو آخر عصور الأدب المغربي التي أردنا الحديث عنها، وهو. وان كان يبدأ بقيام الدولة العلوية الحالية، إلا أن الدراسة الأدبية لهذا العصر ستقف عند آخر القرن الثالث عشر الهجري وان تتعداه إلى اليوم. وبما ذلك إلا لأن مراجع البحث في هذه الفترة معدومة بسبب الظروف، الحاضرة، على أنه قد تواترنى فرصة أتمكن فيها من المراجع ومن الكتابة إن شاء الله.

أما فيما يتعلق بحياة الأدب في هذا العصر فانها ظلت تواصل سيرها قدما، وعلى الرغم من الحوادث التي صدمت الحياة الأدبية في أول هذا العصر عند القضاء على الزاوية الدلائية، إلا أنها ظلت منتصرة على طول الخط.

المولى رشيد (١٠٧٥ - ١٠٨٢) : إن الرشيد في قضائه على هذه الزاوية يغفر له فعلته هذه أمران :

(١) خوفه السياسى على دولته الجديدة وعلى وحدة المغرب الذى يجب ألا يتجزأ
(٢) إكرامه لطلبة العلم وأساتذته من أهل هذه الزاوية بعد الايقاع بها .
فقد نقلهم جميعا الى العاصمة (فاس) ومن بينهم الاديب والعلامة أبو على الحسن اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ ، ذلك الاديب الذى يقول عن نفسه : لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لقطعت ، والذى رثى زاويته التى تخرج فيها بقصيدة تنيف أبياتها على الحسين بعد المائة يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن يشتر الدرا فيأبى ويعتاض الحقى بها خرا

وإذا عرفنا أنه بكاهما وقال فيها ما قال ، وهو فى أحضان الدولة التى قضت عليها ، عرفنا المقدار الذى كان يتمتع به الأدهاء من حرية القول فى ذلك العهد .
وذلك هو الاديب الذى يشرح لنا علاقة الزهر بالغيث فى أسلوب ساحر :

ان بين الغمام والزهر الغرض لرحا قديمة واخاء
 بان لاف عن لافه فتواري في الثرى ذا وذاك حل السماء
 فاذا ما الغمام زارت جنابا . اذنت فيه بالحبيب اللقاء
 ذكرت عهده القديم فحنت عند لقياء فاستهلت بكاء
 فتري الزهر بارزا من خبايا . يحبي الوفود والاصدقاء
 بادى البشر والبشاشة جذ لان لبوسا من كل لون رداء
 مملا من شمول شمس الضحى وهـ وعلى بسط سندس خضراء
 راقصا والصبا تهنيه والورق غواني القيان تشدو غناء

أما اليوسى العلامة فيكتفى أن يقول فيه أبو سالم الميماني (١٠٣٧ - ١٠٨٠هـ)
 صاحب الرحلة المعروفة :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه
 المزاد القول بأن طلبة العلم ورجاله ظلوا يدرسون ويدرسون العلم والآداب ،
 وظلوا يكرعون من متاهل الثقافة العذبة ، ويواصلون الدراسة تحت ظل من يناصر
 العلم والآداب ويماضهما من ملوك هذه الدولة وأرباب البلاط فيها .
 فلنحمد الله على أن الحركة الادبية في هذا العصر لم تكن أقل نشاطا منها في
 أى عصر مضى . وكيف يموت الأدب وهذا الخليفة الرشيد يثيب على بيتين من
 الشعر قالهما فيه شاعر جزائرى فيصليه بألفين وخمسمائة أو خمسين دينارا على رواية
 أخرى وهذا البيتان هما :

فاض بحر النوال في كل قطر من ندى راحتك عذبا فراتا
 غرق الناس فيه واتس الفقر خلاصا فلم يجدده فاتا
 انظر الى هذا الخيال البديع الذى يجعل من الفقر شخصا يبحث عن خلاصه
 من الغرق الذى هو نعمة وسلام على البلاد وأهلها ، ونقمة وحرب عوان على الفقر
 وحده ، ثم تكون النتيجة القضاء عليه قضاء مبرما ... حقا ان من الشعر لحكمة
 أم كيف يموت الأدب وهذا المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤)

يحتضن الادباء والشعراء ويحبوهم برعايته السامية، فلقد ألف ابن اللونان المتوفى سنة ١١٨٧ أرجوزته الشهيرة بالشمقمقية (لأن أباه كان صاحب نواذر وملح مع السلطان فكناه أبا الشمقمق) التي يقول في مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الاينق ولا تكلفها بما لم تطق

والتي يقول عنها صاحب الاستقصاء (١٢٥١ - ١٣١٥) : إنما من الشعر الفائق ، والنظم البديع الرائق ، أبان منشئها عن باع كبير ، واطلاع غزير ، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها ، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب ، (ص ١٢٢ ج ٤)

ولكن ماحيلة الشاعر وقد تمذر عليه الوصول الى السلطان صاحب أبيه ؟ لم يعد في امكانه إلا أن يتحين فرصة خروجه في وكب من مواكبه الفخمة فيصعد على تشز من الارض ويصبح :

ياسيدى سبط النبي أبو الشمقمق أبى

فيعرفه السلطان ويأمر باحضاره الى القصر ، ثم ينشده الشاعر أرجوزته التي تقرب من ثلاثمائة بيت فتقع من المولى الموقع الحسن فيجزل صلته ويرفع منزلته لقد تعددت الغنون الشعرية والاغراض الادبية بتعدد الادباء . وانتاج كل أديب ، ومن العسير أن أعطى في هذه العجالة صورة من كل غرض ، وإنما حسبي أن اتخذ نموذجا يقاس عليه غيره . وليكن هذا التودج في ميدان الغزل والنسيب ذلك الميدان الطيبي ، للانسان ، والذي يصدر فيه كل شاعر على حسب سجيته ووفق هواه . ولا تقطع شيئا من قصيدة الوزير محمد ابن ادريس المتوفى سنة ١٢٦٤ التي تذكرك بموسيقى عيد الوهاب وغنائه وتفصيك نفسك التي قد تكون مثقلة بمهوم الحياة :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر وبحسن قد كالفضيب الزاهر

وبقرة كالغجر تحت ذوائب كدجنة فأعجب لحسن باهر

وبنقطة مسكية في وجنة وردية ذات الاريج العاطر

وبريقها المعسول الا أنه يشفى الحشا من كل داء ضائر
 ريق أعز على من نيل المنى وألذ من رشف الرحيق لخاطر الخـ
 وهذه قطعة خالدة للأديب أبي عبد الله الشرقى صاحب العلمى مؤلف الانيس
 المطرب :

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
 فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها
 وخذها أبهج من وردها ونورها ألطف من نورها
 وقدها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
 العيش والجنة فى وصلها والموت والنيران فى هجرها
 عاطيتها راحا مشعشة كثل ياقوت على نحرها
 راح أراح الانس فكري بها من شارة الدنيا ومن شرها
 وهى فى مجلس أفرأحها كأنها الزباء فى قصرها
 لو تسعد الدنيا بزورها لاصطلع الناس على شكرها

وهى لرقناتها تستحق الخلود أيضا تلحينها وغناء

ومما يتفرع من هذا الموطن شعر الاشارة ، الذى يمت به صلة قربي الى باب
 الغزل والنسيب . ان التصوف ان الادب الصميم ، فكيف لا يكون المتصوفة من
 أرباب الادب أيضا وهل هناك فرق بين الادباء والمتصوفة الا أن ليلي الاديب مريضة
 وليلى المتصوف مريضة ! على أنه قد لا يجدى تمريرها مع صبايته شيئا فيفى فى

هواها وتبقى ليلي وحيدة فى هذا الوجود استمع الى قول السيد الحسراق

أتت الدجى كي لا يراها رقيبها ويخلص من شر الوشاة حبيبها
 فتم بها اشراق نور جمالها وأخبر عنها اذ تهتو طيبها
 فوالله لا يخلو بها غير عاشق رقيق المعانى فى الامور لبيها
 فى قيدت فى موضع الوصل وحدها ولما يكن شئ هناك يربها

ولا أريد الاستشهاد كثيرا فان هذا بما يطول بهذا البحث القصير وأرجو الله
أن أكون قد أعطيت صورة مصغرة لحياة الادب في هذا العصر خاصة وفي
المصور السابقة له عامة ، كما أرجو أن أكون قد وفقت في اعطاء هذه الصورة
ولو بعض التوفيق ؟

عبد الله محمد العمراني

فهرس العدد الثاني من السنة الثالثة عشرة من

صحيفة دار العلوم

صفحة	
٣	في رسالة الغفران لابن الملا . الاستاذ السباعى ييوى الاستاذ بدار العلوم
١٠	اثر الحضارة العربية فى التربية للاستاذ عبد الحميد حسن
٢٩	شوقى والعلم الاستاذ محمد احمد الحوفى المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية
٤٣	اسماء بنت ابى بكر الاستاذ محمد بيلى الفار المفتش بالمعارف
٤٧	فى الادب المغربى الاستاذ عبد الله محمد الميرانى خريج دار العلوم